مَظاهِرُ الأَدَب في جَبَلِ الدُّروز*

بقلم سعيد ابو الحسن (السويداء)

مقدمة عامة

كان الشعر لينطفئ بانطفاء اللغة الفصحى . فالشعر العربي كان مزدهرا في الجاهليّة يوم كانت لكل قبيلة من قبائل العرب لغتها الخاصة ، قبل أن توحّد الاسواقُ ، ثمّ القرآن ، هذه اللغة ، فتحلّ محلّها جميعاً لغة قريش التي ظلّت لغة العرب حتى نهاية ملكهم وتفرّقهم طوائف واقاليم متعدّدة يعيش كل منها عيشة خاصّة ، في ظل حكم اجنبي ، على الغالب .

وإن تكن العربية الفصحى قد لجأت في عهد التفكك هذا الى الزوايا والأديرة والكتاتيب ، فإنّ الشعر قد لجأ — وأولى أن يقال عاد — الى قبائل العرب البادية والحاضرة ، الى عشائر الجزيرة العربية والبادية السورية ، والى اهالي القرى في سورية الطبيعية كلها . وكان من الطبيعي ان يكون هذا الشعر بلغة القبائل العاميّة : لبعد عهدهم عن التكلم باللغة العربية الفصحى من جهة ، او لتأخّر الحالة العلمية بينهم من الجهة الأخرى . فهم كأهل الجاهلية ، ينظمون الشعر باللغة التي يتكلمونها . وما كان هذا ليضير الشعر من حيث هو شعر ، وان يكن قد اضرّ بلغته من حيث هي لغة فصحى موحّدة شاملة لاقطار العرب جميعها . فعادت الحياة الشعرية بين القبائل العربية — والبادية منها او القريبة من البادية بنوع خاص — الى سالف ازدهارها . واذا بنا نرى لكل قبيلة شاعرها (او شعراءها) يذود عن حياضها مهاجماً او مدافعاً يذكي مفاخرها ، ويترنّم بحوادث الغرام فيها ، ويذكي نار الحمية في شبانها ، ويدعو الى التمسك بالفضائل العربية المشهورة كافة افرادها . واذا بنا نرى عهداً حافلاً بأجود الشعر ،

* دراسة قُدّمت الى معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف (فرع الادب العربي) .

قريباً الى النفوس بملامسته حساسيتها الطبيعية ، بعيداً عن الصنعة التي كثيراً ما يفرضها العلم فرضاً حتى على فريق من الشعراء الطبيعيين الذين تستبدّ فيهم قوانين سيبويه وقواعد الخليل ، فتخرج بهم عن حقيقة الشعر التي هي الطبيعية والسذاجة والفطرة قبل كلّ شيء . اذ من النادر ان نرى ، في زماننا هذا ، ملكة اللغة الفصحى تصبح من القوّة بحيث ترجح ملكة اللغة التي يتكلمها الشاعر حتى يصحّ ان يُقال انها هي لغته الطبيعية ، يتكلمها دون ان يعمل الفكر في قواعدها وقوانينها . إن هذا كان صحيحاً حتى اواخر العصور العباسية ، لأنّ العرب والمستعربين كانوا يتوارثون اللغة الفصحى بالتكلم والتعلم ، فهي لغتهم التي بها يتفاهمون والتي بها يكتبون .

وقد تعود هذه الحال اذا استطاع العرب ان يوحدوا ثقافتهم وبرامجهم التعليمية ، ويتدرجوا نحو توحيد اللغة — لغة الكلام ولغة الكتاب — في كافة اقطارهم ، بحكم اضطرارهم الى التفاهم بلغة واحدة تحل محل لغاتهم المختلفة التي يصعب تفاهم الكل بواحدة منها . وهذه اللغة الموحدة لن تكون الّا العربية الفصحى .

ولكن هذا لن يتم في وقت قريب لقوة الملكة العامية في نفوس العرب اليوم ، واختلاف طرق معيشتهم باختلاف اقطارهم والدول التي سيطرت على هذه الأقطار . وقد اطلعت على كثير من شعر العرب بلغتهم العامية فوجدته لا يقل خصباً وجودة عن شعر العرب بلغتهم المضرية ، وان يكن لا يخضع لقواعد النحو والصرف . فالنحو والصرف شيء والبلاغة شيء آخر . اعني ان الكلام يمكن ان يكون بليغاً ، يمكن ان يعبر عن الفكر اجمل تعبير دون ان يكون الفاعل فيه مرفوعاً والمفعول به منصوباً . وهذا رأي قال به ابن خلدون في مقدمته ، وهو رأي مصيب .

سمعت قصائد تصف معارك عرب آل سعود مع عرب ابن الرشيد ، فوجدتها لا تقلّ جمالاً عن وصف المعارك في الشعر الجاهلي او الاسلامي . وهي متينة السبك موحّدة الموضوع كأحسن قصائدنا الفصحى . وكذلك القول عن سائر انواع الشعر العامي البدوي . فهو شعر البادية جميل كلّه ايّاً كانت القبائل او

المناطق التي قيل فيها . ولو كان لي ان اجمع ما قاله عرب البادية بوصف القهوة ومفعولها ، او وصف الحب والكرم وما الى ذلك ، لاجتمع لي من كل نوع ديوان ضخم كله من الشعر الجيد .

وكان في نية الله ان ينقل قسماً من الدروز ، الذين يفتخرون بنسبهم العربي اليماني — على الغالب — الى جبل حوران فيحتكوا باهل البادية ويخالطوهم في سلم او حرب ، ويحكموا عاداتهم العشائرية ، ويرووا اشعارهم ، ويسردوا قصصهم الجميل ، وينظموا الشعر على طريقتهم فيوجدوا لنا في هذا الجبل شعراً جميلاً يعبّر عن آلامنا ، وآمالنا ، ويذكر فضل الزمان علينا او ظلمه اياتا ، ويؤرخ جهادنا الطويل في سبيل البقاء والكرامة . — شعراً يزخر بالأنفة والاباء ، بالشجاعة والكرم ، بالوفاء وصدق العاطفة ، بسلامة النية ، والتعلّق بالجوهري الجوهري من الحياة . حتى ليحق لنا ان نفتخر باننا خلقنا في هذه البقعة من الأرض حياةً عربية خالصة بشعرها وفضائلها وعاداتها وكلامها ، حتى لا يستطيع احد أن ينكر علينا اننا قمنا باكثر من واجبنا في المحافظة على عادات قومنا وآدابهم واخلاقهم، وكنّا اول من اعاد الصلة والتعارف فالتعاطف بين بدوهم وحضرهم ، ومهّدنا اكثر من سوانا لعودتهم الى الحياة الحرّة عن جدارة وفهم لحقيقة الحرّية .

١ ـ توطنهم

كان تجمّع الدروز في لبنان ، والتفاف كل عائلة من عائلاتهم حول رئيسها ، واتفاق الكلمة بين رؤساء العائلات ، سبباً لقوتهم ومناعة جانبهم . وكانت هذه القوّة بحدّ ذاتها شرّ لهم : فلم يتجرأ من اضطهاد المماليك اياهم ، وتدميرهم منازلهم ، واتلافهم اغراسهم ، حتى جاءهم اضطهاد العثمانيين وعسفهم . واصبح لبنان يضيق بهم على وسعه ، واصبحوا يفكّرون في تركه واللجوء الى وطن سواه يبنونه كما يشاءون وينسون فيه ما جرّته عليهم العظمةُ من الشرور والويلات . فهاجر قسمٌ منهم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الى حاصبيا وراشيا وغوطة دمشق ، وأسسوا في هذه البلاد خلايا درزية ما لبثت ان نمت وكوّنت مجموعات

ذات شأن لا يقلّ عن شأنها في المتن والغرب والشوف .

ثم جاء القرن السابع عشر ، وكان الاضطهاد العثماني قد بلغ الذروة ، وكان الخلاف العائلي الداخلي قد استفحل امره فهاجر قسمٌ من الدروز بقيادة الامير علاء الدين المعني واستوطنوا القسم الغربي الشمالي من جبل حوران من ازرع الى نجران . وما زالوا يوسعون دائرتهم في موطنهم الجديد هذا ، حتى عمروا كل قراه من السهل الحوراني غرباً ، حتى الصحراء شرقاً ومن الجيّانة جنوباً ، حتى مشارف دمشق شمالاً . وشاءت الظروف ان تقع في لبنان حوادث الـ ١٨٤٥ والـ ١٨٦٠ المشؤومة فنزحت طائفة جديدة من العائلات الدرزية واتخذت جبل حوران مسكناً لها ، نازلةً بين اهله على الرحب والسعة . وكانت مجاعة الحرب الكبرى — وكان جبل حوران قد طوّعت ايدي الدروز العاملة نواحي ارضه وصيّرته ينبوع خيرات لا ينضب . فلجأ دروز لبنانيون الى حوران مرّةً اخيرة ولم يعد ، الى لبنان ، بعد الحرب ، إلّا قسم منهم وبقي الآخرون في الجبل متخذينه وطناً نهائياً لهم . — وكانت سهولة المواصلات بعد الحرب سبباً في وصول موجات جديدة من الدروز اللبنانيين حتى اصبحت الجالية الدرزية اللبنانية في السويداء وفيرة العدد ، تقبض بيدها على قسم من مرافق المدينة ومتاجر البلد .

ولا يعتقدنّ أحد أن كل هذا الانتقال والاستقرار حصل بسهولة . ذلك ان هذا الجبل الغني سابقاً باحراجه ومراعيه وينابيعه ، الغني بتناخه المعتدل وجوّه الجميل ، كان مصيفاً لعربان البادية تأتيه مواشيهم في القيظ ولا ترحل عنه إلّا في اواخر الخريف . وكان من الطبيعي أن يقاوم هؤلاء البدو استيطان الدروز في الجبل فحصلت حروب كثيرة ووقعت سلسلة طويلة من المعارك في سبيل البقاء ، انتهت بانتصار الدروز بعد ان سقوا ارض الجبل بدمائهم مثلما سقوها بعرق ابدانهم ليحصلوا منه على لقمتهم ويتفيّأوا من سمائه خيمةً تحميهم من عوادي الدهر وظلم الظالمين . وتألّب على الدروز في وطنهم الجديد هذا كلُّ غازٍ طامعٍ في الاستيلاء على سورية واخضاع السوريين . فحاربهم ابراهيم باشا المصري ، وكانوا إذ ذاك قبضةً من الابطال لا يُبيأ بها ، فحاربوه وانتصروا عليه وقتلوا

من قوّاده وجنده عددًا لم يقتل مثله في المعارك التي دارت بين الباشا الفاتح والسلطان العثماني . وحاربهم العثمانيون مرّات عديدة فحاربوهم ايضاً ، وصارت كل بلدة في الجبل لها معركة تُعرف بها ، وكل زاوية من زوايا الجبل مثوىً لعددٍ من بنيه الابطال بازاء المقابر الطويلة المريضة يرقد فيها جيشٌ لجب من اعداء الجبل المغيرين.

وهكذا كان الجبل الصغير بساحته وعدد سكّانه غنياً بالذكريات المجيدة ، غنياً بالملاحم المشؤومة ، بالليالي السود والبيض ، بالانتصارات والمجازر ، بآثار العمران الناطقة بكرومه وحقوله وبساتينه ، وآثار الدمار الماثلة في احراجه المندثرة وينابيعه المغوّرة.

وكان على الدروز ان يكونوا على جانب عظيم من اليقظة لا ينام الرجل منهم إلّا وسيفه تحت وسادته خوفاً من مفاجأة العدو على حد قول شاعرهم الاكبر شبلي بك الاطرش :

عالسيف : سيفك لا يفارق وسادتك وخليك حرز من الرجال حريص

وكان عليهم ان يحيوا ليالي ساهرة حافلة صيفاً وشتاء منتظرين صوت المستنجد - لا يذهب الفلّاح منهم الى حقله إلّا وسلاحه في كتفه . فلا امان ولا راحة ولا ضمانة لهؤلاء القوم إلّا قوّتهم . وكيف يعملون على تغذية هذه القوّة وما تتطلّبه من حماسة واستمرار إن لم يلجأوا الى الاغاني ، والاهازيج ، ولعب الرياب ، وابتكار وسائل اللهو القويّ ، لهو الابطال في فترات الاستراحة القليلة الكائنة بين المعركة والمعركة : فكان لنا الشعر الحماسي ، تاريخ حروبنا ، ومذيع اخبارنا ، ووسيلة دعايتنا ، ورمز تفوّقنا.

وكان الاتراك ، عندما يظفرون ، يحاولون قتل روح الحرّية والتمرّد فينا الى الابد . فكانوا يشنقون البعض ، وينفون البعض الآخر ، ويعذّبون من بقي.

وكان المنفيّون منا يحنّون الى هذه البقعة من الارض بشعرٍ رقيق يدلّ على مبلغ تعلقهم ببلدٍ غذّوه بدمائهم ومزجوا ارضه بروح نشاطهم واجتهادهم وجهادهم ، فاصبح لهم قبلة يوجّهون اليها افكارهم وقلوبهم وارواحهم : فكان لنا شعر الحنين والفراق.

وفي ساعات اليأس التي تتلو الانكسار ، او تسبق وصول الجيوش الزاحفة ، كان القوم يجلسون للمذاكرة فتتلاظ السنتهم بالاخلاقيات والمواعظ : فكان لنا الشعر الأخلاقي.

وكان الناس بعد الانتصارات الرائعة ، وفي فترات الراحة المستحقة ، يذكرون ما للقلب من واجبات يقضونها ، ويميلون الى اخذ قسطهم من متع الحياة العريضة : فكان لنا الشعر الغرامي.

وكانت الحروب والمشقات تظهر افعال عددٍ من الابطال في كل فترة من فترات الحياة في الجبل ، فتثير الاعجاب في نفوس المواطنين ، وتدفعهم الى تمجيد هؤلاء الابطال : فكان لنا الشعر المدحي.

وكانت هذه الحروب نفسها تفجع الناس كل يوم بعزيز جديد ، فيبكونه رجالًا ونساء . والرجال لا يريدون ان يجعلوا للضعف والحزن محلًا في نفوسهم ولا للموت قيمة في نظرهم ، فلا يذكرون الميت إلّا قليلًا ، تاركين امر الحزن للنساء وحدهنّ : فكان لنا الشعر الرثائي ، وخاصة الندب والنواح النسائيان.

واشترك الدروز بالحركة العربية وكانوا في طليعة الجيش الفيصلي عند دخوله الى دمشق واشتغلوا بالسياسة السورية والعربية بعد الحرب : فكان لنا الشعر السياسي.

ثم كان الإحتلال ، وكان تقلب الأحكام والسلطات ، وعمّ فساد الاخلاق جميع الناس إلّا أقلهم ، وظهر على مسرح الحياة العامة في الجبل وجوه جديدة وطفت موجة السعاية والوشاية والتجسس فلم ينجُ من غمرتها إلّا نفر قليل جدًا : فكان لنا الشعر الانتقادي ، او الاجتماعي.

وكانت الثورة ، ثورة الـ ١٩٢٥ ، فاحدثت الى جانب الشعر الحماسي المعروف قبلًا بما فيه من وصف المعارك وذكر المفاخر ومدح الابطال ، شعرًا جديدًا ذا مرامٍ سياسية عامة.

وما ان انتهت الثورة حتى عاد المتجسسون الى تجسسهم واصحاب المطامع الى مطامعهم ، فكان الشعراء لا يستطيعون ان يبوحوا بما في ضمائرهم ، وإن هم قالوا شعرًا قالوه تلميحًا : فصار فيه شيء من الرموز والتعقيد. — وانصرف اكثر

الشعراء الى النزل. واصبحوا ينتبهون الى ما يجري في القرى من حوادث فيصفونها بشعر بسيط فيه نكتة وفكاهة وفيه انتقاد لاذع وتهكم مرّ.

قبل ان انهي هذه الترطئة اريد ان الفت النظر الى شيوع الشعر بين ابناء الجبل عموماً. فكل جبليّ شاعر في وقت من اوقاته إن لم يكن بالطبع فبالمحاكاة. ولكن لم يشتهر من الشعراء — مع كثرة عدد المشهورين منهم — إلّا الذين اتاحت لهم سعة الرزق والراحة وقتاً كافياً، وجوّاً ملائماً لنظم الشعر كلما دعت اليه الحاجة أو دفع اليه الوحي.

ولما كانت سعة الرزق والراحة لا تتوافران إلّا لاصحاب الاملاك الواسعة الذين يكلون امر اشغالهم لسواهم، ولا يهتمون بسوى استقبال الضيوف والزائرين وحضور الاجتماعات، والاهتمام بالامور العامة دون الشؤون البيتية، لذلك كان عدد الشعراء من شيوخ القرى، بالنسبة الى عددهم، اكبر من عدد شعراء العامة. لأن هؤلاء كان عليهم ان يكدحوا في هذا البلد المستحدث لتحويل اراضيه البور الى حقول كثيرة الخصب إن لحسابهم الخاص وإن لحساب شيوخهم. كان لهم من مكافحة الفقر وبذل الجهود الجبّارة في سبيل الرغيف شاغلٌ كافٍ عن الشعر والغناء، وان يكن هذا الشاغل عاجزاً من منهم من الاشتراك بكل المعارك والاتيان باعمال جبّارة في حقل البطولة والدفاع عن الوطن. حتى نظموا في هذا الجبل قصيدة رائعة بل ملحمة كبرى سطورها كرومنا وحقولنا ومتاجرنا ومحترفاتنا، وكلّ ما يؤمّن الحياة والرغد لحاضرنا ومستقبلنا. واما حبرها فنجيع الافئدة وعرق الجباه.

القسم الاول: ما هو الشعر الجبلي؟

لن اتكلم عن مظاهر الادب عامة والشعر خاصة في جبل حوران قبل نزوح الدروز اليه. ذلك ان هذا الادب يدخل في عصور الادب العربي عامة يزدهر بازدهاره وينحطّ بانحطاطه، دون ان تكون له مزايا خاصة به تميزه من سواه. غير ان هناك فائدة واحدة نجنيها من ذكرنا بعض من مرّوا بهذا الجبل

او سكنوا فيه او ذكروه في شعرهم للدلالة على اهمية مركز جبلنا الجغرافي وكونه نقطة الاتصال بين الصحراء العربية والشام : فهو اول ما تقع عليه العين من البلاد المعمورة شمالي جزيرة العرب. ولذلك كان اهله يتصفون بصفات اهل الشام من وجوه عديدة من حيث طُرُق المعيشة ، وترتيب المنازل ، والاعتناء بالزراعة ، يُضاف اليها بعض صفات البدو اهل الصحراء : من الاهتمام بحوادث البادية ، والعناية بتربية الماشية ، والاكثار من التحدث باخبار العرب وحاضرهم ومستقبلهم ، واتقان جميع اللهجات العربية الحاضرة منها والبادية ؛ والاختلاط باهل المدن واهل الصحراء في آن واحد ، والاتجار مع هؤلاء واولئك ايضاً . ولذلك كان الادب الحوراني يجمع الى رقة الادب الشامي وشمول مواضيعه ، خشونة الاسلوب البدوي ، وصراحة اللهجة البدوية ، وصدق العاطفة البدوية . فكما تهبُّ على الجبل رياح البحر المتوسط من وراء جبل الشيخ ، او جبل الكرمل ، او جبال عجلون ، كذلك تلفحه الرياح الصحراوية الجافة القاسية ، فترى كروم العنب في الجبل تجاور منابت الشيح والقيصوم ، وترى مواشي الجبل تقضي الشتاء في البادية والصيف في اعالي الجبل وسفوحه ، وطيور الجبل فيها الحساسين والحجل . الى جانب القطا والحبارى . والذئب والضبع الى جانب الغزال واليربوع .

مرّ امرؤ القيس وصاحبه بجبل حوران ، وهما ذاهبان الى قيصر بدليل قوله :

ولمّا بدت حوران ، والآل دونها ، رأيت فلم تنظر بعينك منظرا

وقد جاء النابغة الذبياني حوران مرات عديدة يقيم بين الغساسنة ، يهلل فيهم شعره ، وينال محبتهم وكرمهم .

وجرير جاء حوران ايضاً فذكر « الصفاة التي شرقيّ حورانا » وذكر « اذرعات » وسواهما .

وكان في العصور الاسلامية شعراء حورانيون من جبل حوران اشهرهم : محمد بن ميّاس المرماني ، من بلدتي عرمان ؛ والقاضي الصرخدي من صرخد (وهي اليوم صلخد) — والشاعر المتاني من متان — (وهي اليوم آمتان) — ونجم الدين القمراوي من قمراء — (وهي اليوم قيدة) — ولكن هؤلاء الشعراء

لا يعنينا امرهم كما اسلفنا لبعد الشقة بيننا وبينهم من جهة ، ولكون حوران في وقتهم لم تكن له شخصية خاصة ليدرس ادبه على حدة . وكذلك القول عن الشعراء من آل شهاب ، اصحاب شهبا او مدينة « فيليبوس العربي » وهو الجبلي الذي جلس على عرش روما ، كما هو معروف لدى العموم . لن اتكلّم عن الشعر الجبلي او الأدب الجبلي قبل نزوح الدروز اليه للأسباب التي ذكرت .

على انني من جهة اخرى لن اقتصر في هـذا الدرس الموجز على الشعراء الدروز . فانـا انا ادرس شعرًا وادبًا نبتا ونميا في ارض هذا الجبل سواء أكان الشاعر او الاديب درزيًا ام سنيًا ام مسيحيًا . المهم ان يكون هذا الأديب او الشاعر من ابناء الجبل ، لا ان يكون من ابناء الطائفة الدرزية .

واني في هـذا لا افعل إلا ما يفعله ابن صحراء العرب عندما يطلق اسم « الجبلي » على البدوي والحضري من اهل الجبل على السواء . « فالجبلي » هو الدرزي والسني والمسيحي ، هو ساكن القرى الجبلية في الأعالي والسفوح او ساكن الخيام في سهول الجبل وبطاحه .

عَرُوض الشعر الجبلي ، لغته ، بحوره ، تعبيره

جرت العادة ان يُدرس الأدب من جهة المعنى اولًا ، ومن جهة المبنى ثانيًا . غير أن هذه الطريقة المدرسيّة ، وان كانت لهـا محاسن جمة من حيث التنظيم والترتيب ، وتقديم الأهم على المهم ، لا يمكن اتباعها في جميع الابحاث الأدبية على الاطلاق ، وخاصة في بحث كالذي نحن بصدده يتناول لونًا خاصًا من الأدب الشعبي له لغته الخاصة واوزانه الخاصة وتعابيره الخاصة . وكما ان لكل شيء بابه كذلك باب شعرنا الجبلي مبناه . ولا يمكن لأحد ان يطمع بمعرفة حقيقة هذا الشعر ، إن هو لم يبدأ بفهم مظهره ، بفهم عَرُوضه الخاص ، ولغته الخاصة ، واوزانه الخاصة .

عندما جاء الدروز الجبل وجدوا فيه قبائل بدوية شتى لهـا شعرها واصطلاحاتها ، ووجدوا اهل السهل الحوراني ولهم شعرٌ كشعر الاعراب ينظمونه بالأوزان نفسها واللغة نفسها . وإذا عرفنا ان اول شعر قاله الدروز في الجبل

الجديد كان موجّهاً اما الى البدو ، و إما الى الحورانيين الاصليين في اغراض شتى : كالاستشارة ، والمعاتبة ، والتهديد ، والتفاخر وما اشبه ؛ كان من البديهي انهم استعملوا طريقة البدو والحورانيين نفسها عملاً بالحكمة البسيطة القائلة : « كلّم الناس بما يفهمون » . ومن البديهي ايضاً ان هذا الشعر — وكل آثار ادبا الجبل شعر حتى السنوات الاخيرة — ما كان مُعدّاً ليُقرأ بل ليُغنّى ، هو شعرٌ للغناء ، للموسيقى قبل كل شيء . فعبثاً نحاول ان نفهمه ونتذوّق ما فيه من متعة ، إذا نحن اكتفينا بمطالعته . عبثاً نحاول استشفاف الروح الجبلية الشاعرة من خلال السطور المخطوطة . يجب علينا ان نحضر بين الجبليين في سهراتهم الحافلة ، وقد صمت جميع الحضور ، مصغين الى المغنّي يوقّع الحانه على الرباب ، وصوته ينعش ارواح الحاضرين بما يغنّيه من القصائد الجبلية البديعة . هذا هو « الشاعر » بعرف الجبليين . ويندر ان نجد شاعراً لا يحسن التوقيع على الرباب كما ان اكثر المجيدين التوقيع على الرباب من « الشعّار » . لذلك عمّت لفظة « الشاعر » الذين ينظمون الشعر بالفعل ، والذين يضربون على الرباب سواء أكانوا من الشعراء الموسيقيين ام من الموسيقيين فحسب . وهذا طبيعي في مجتمع يفتقر الى العلم — الى القراءة قبل كل شيء — فالشعر يُحفظ ويُلقى ويُتناقل ويُروى ، وقلما يُكتب . او هو يُكتب للحفظ فقط ، لا للنشر . أمّا اللحن الغنائي الشائع فهو اللحن الحورانيّ المعروف منذ القديم ، بدلالة ما اورده ابن خلدون في مقدّمته إذ قال ، في معرض كلامه على الشعر العامي المعروف في عصره : « واهل المشرق من العرب يسمّون هذا النوع من الشعر بالبدوي ، وربما يلحّنون فيه الحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثمّ يغنّون به ويسمّون الغناء به باسم الحوراني نسبةً الى حوران من اطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية وساكنهم الى هذا العهد . » — اهـ .

ولنا بحاجة الى القول ان هذا الشعر منظوم بلغة العامة ، بلغة اهل الجبل — جبل حوران — اي بلغة دروز لبنان مع بعض التجدّد فيها بسبب تأثير اللهجات المختلفة التي عرفها اهل الجبل عند جيرانهم البدو واهل السهل الحوراني . كانت هذه اللغة في بادئ امرها بسيطة طبيعية لا تكلّف ولا صنعة فيها ،

شأن شعراء البدو الذين لا يختلف كلامهم الشعري عن كلامهم العادي . ولكن هذه اللغة — مع الاسف — قد دخل عليها التكلف فيما بعد ، فاصبح لدينا شعراء عاميون يحتاج قارئهم ، وهو المتكلم لغتهم ، الى اجهاد نفسه وكدّ ذهنه لفهم لغتهم المعقّدة المصطنعة . وقد لا يحجمون عن اختراع كلمة من عندهم ، ونسبتها الى بدويّ بعيد مجهول فتصبح مقبولة متداوَلة . وهم يكثرون من استعمال الجناس خاصة في القوافي ، وفي بعض الفنون الشعرية التي سيأتي ذكرها حتى لتراهم يتسابقون الى ايراد اكبر عدد ممكن من الجناسات للفظة الواحدة في القصيدة الواحدة ، حتى لتأتي اللفظة بضع عشرة مرّة ، وكل مرّة بمعنى يختلف عن سائر معانيها . وفي هذا فوائد كثيرة لا تنكر ، ودلالة على براعة وذكاء يستحقان الاعجاب ، ولكنّ في هذا ، قبل كل شيء ، خروجاً عن نطاق الشعر العامي المطبوع ، شعر السليقة الفيّاض الذي عرفه شعراؤنا المتقدّمون بوجه الاجمال . والكلمة العامية لا تأتي متحرّكة ابدًا - بل هي ، مبدئيًا ، ساكنة ، إلا فيما ندر . وهذا الخروج عن القاعدة يُعد شذوذًا لأن تحريك آخر الكلمة يتعمّده الشاعر إما لتقويم الوزن واما لتقليد الشعر الفصيح . وهذا التقليد اضرّ كثيرًا بشعرنا العامي . إذ صيّره عند بعض الشعراء هجيناً يُشكّ في نسبه : فلا هو فصيح ولا هو عامي - بل هو بين بين . وسوف نأتي ببعض امثلة من هذا النوع الخليط عند كلامنا على الشعراء .

اما بحور هذا الشعر العامي فكثيرة . واما تساوي عدد بحور الشعر الفصيح إن لم تكثرها . وكل بحر من البحور العامة مشتقّ من بحر من البحور الفصيحة — ما عدا حركات الاعراب — :

فالشروقي عندنا يلائم الطويل مثل :

بَرْني لَمَجْ عَجَلِ المَطَرْ ، يَوْمْ بْنَا . خَمّ الغروعْ وفاضْ يَمّ الشتايا

اما القصيد فيأتي على ثلاثة اوزان : الاول كالطويل مثل :

عَطَا انْ عَنْ قلبي حَذَا الهمْ قسمْ . ونفسي أبتْ عنْ مطلبِ النَّاسْ زاهدَه

والثاني كالرجز مثل :

أَوَّلْ كَلامي احمدُ الربّ العَلي . القادر المبود مولانا الأَزَلْ

والثالث كالوافر مثل :

قلت لها : ألا يا زهرْ ، قرّي أنا بملك ، انا ذيب الشيَّهْ
لناخذ عن سداد الشيخ عشره ، وناخذ عن سداد الشب ميَّهْ

و« القنّ » يتفق مع الكامل الساكن التاء المحذوف الضرب :

البارحهْ من واهجي قلت آها البنْ وجدّى والبيرْ احماها
محتارْ من غزْل الزمانْ وفتلهْ والجوف من شب الزفير حفاها

و« الجوفيّ » على وزن الرّمل :

الذّروز الساجيمْ واحدْ بليدْ يتحجون الصدْ ونْ علىّ الحداه

و« المثنّى » او « المصلوع » كالرجز مثل :

يا جبّلْ هالشيخ ، ياما ارقمكْ الله يبتلكْ صواعقْ تقلمكْ

و« القرّادي » كمجزو. الخفيف مثل :

يا مولانا ، لا تتهمْ عصوريًا لا تنمّ
بالليل طبختو للسمْ اصبحتو فيه مقتولين

و« حداء » الفرسان كمجزو. الرجز مثل :

يا صلخدْ ، يا ركنْ الطوبْ حرمتْ عليكمْ يا حمدْ
حرمتْ عليك سكوتها ما طول البغلة ما تلدْ

و« الهجيني » او غناء الهجّانة كاحد انواع الكامل مثل :

عرجة دلولك ما هي مجّه مَيْر انت بالذلّ راضي بهْ [1]

و« الموشّح » كاحد انواع الكامل ايضاً :

يا عبد المسرور ما احلاك امأ على المنظام زاد بهلاك
شو كان ينكدْ على المبرد لو كان بالافراح شاركناك

اما قصيدة « السحجة » فعلى وزن مجزو. الرّجز مثل :

يا ولد وبي الشيبهْ واكربْ زهابكْ فوقيهْ
وانْ كنكْ ناوي لك نيهْ يا شرق القرّا الذبلاني .

---

١) مَيْر : ما غير

وهناك اوزان اخرى فرعيّة لا يكثر النظم عليها ولذلك فانني لا اتطرّق لذكرها ، خوفاً من الإطالة .

سبق لي أن قُلت أن هذا الشعر الجبلي وُضع للغناء لا للنشر ولا للمطالعة ، ولذلك لا يخلو من فائدة ان اذكر الحالات او المناسبات التي يُغنّى بها كل نوع من الانواع التي مرّت بنا :

أمّا « الشروقي » — ويدل اسمه على انه لعرب الشرق — والوزن الأول من اوزان « القصيد » فيُتغنّى بها في السهرات الحافلة ، في المضافات ، يرافقها الرباب : ففيها الهدوء ، وفيها الطول ، وفيها كل ما يلزم لتمضية الوقت بصورة فنية لذيذة . وفيها من طول النَفَس والتعمق في المعاني ما يدفع الى التفكير والتأمل والانطواء على الذّات . ولذلك كانت اهمّ المواضيع وارفع المعاني واكثر الافكار رصانةً ووقاراً تُنظم على هذين الوزنين . وتتخلّل الغناء بها فترات من العتابا — على الرباب ايضاً — للترويح عن الذهن واعداده لاستماع موضوع جديد . وإني حضرت سهرات كثيرة من هذه السهرات الخالدة التي تتجسّد فيها حياة الشعب باجمعها ، فما كنت اشعر بانتصاف الليل ولا باقتراب الصباح . بل كان الوقت يمرّ ، لشدّة النشوة ، بسرعة هائلة . ولا تنقضي السهرة إلا وتترك وراءها شوقاً ملحاحاً الى سهرة جديدة امتع واطول .

اما « الهجيني » و« الحداء » فامرهما معروف ، وهما لغناء الفرسان والهجّانة . وقد يتغنّى الفارس « بالهجيني » والهجّان « بالحداء » . وليس اجمل من كوكبة من الفرسان تخبّ وتحدو في سفح من سفوح هذا الجبل او سهل من سهوله .

امـا « الفنّ » فيُسمّى كذلك اما لشدّة اعتناء قائله بالصناعة الشعريّة ، وسبك الالفاظ والتفنّن بالمعاني ، والحرص على الجناسات الصعبة المتعدّدة ؛ وإما لأنهم عندما يغنّون هذا النوع من الشعر « يَفِنُّون » اي يدورون دائماً ، وهم صف واحد يغنّي الذي في رأسه على اليمين ، ويجيب الباقون وهم اربعة او خمسة ، ويدورون بتسهّل واتّزان بشكل شعاع دائرة مركزها آخر رجل بالصف ومحيطها الرأس الذي يغنّي . وفي هذا النوع من الغناء لازمة هي اوّل مقطع من القصيدة .

فعندما ينتهي بيت من الابيات التي ينشيها الرأس بقافية اللازمة ، فالذين معه يكتفون بترديد اللازمة فقط . وإذا كانت قافيته مختلفة ردّدوا بعده ما يقول: وهكذا دواليك . واكثر ما يستعمل هذا الغناء في الاعراس وسائر الافراح لكثرة ذكر الحبّ فيه وبعده عن التشاؤم والحزن ، إلّا فيما ندر .

واما « الجوفي » او « الجوفيّة » فهو لحن مأخوذ عن اهل الجوف في شمالي جزيرة العرب . وهذا اللحن حماسيّ حربي للغاية . فقبل ان تمشي البيارق الى الحرب ، او الى ايّ امرٍ آخر مهمّ ، يصطفّ اكبر عدد ممكن من الشبّان — وقد يبلغون المئات — بشكل دائرة كبرى ، فينثني بعضهم ويجيب الباقون دفعة واحدة حتى كأنّ القرية تقوم وتقعد ، وكأنّ الارض تهتزّ حماسةً ، وكأن النشاط يتفجّر من الجماد . وكلما وصل شاب جديد ، كان متأخرًا يتأهب للسفر ، اخذ مكانه بين اثنين من الصّافين وشاركهم الغناء حتى السفر . وهم يرافقون اللحن بنقل الخطى نقلًا متوازناً ، وتتحرّك الدائرة على نفسها بتمهّل ، وتزيد الحماسة شيئاً فشيئاً وإذا بالكفوف تصطفق ، وبالأرجل تعلو وتهبط ، وبالشبان يرقصون — وهم ممسكون بعضهم بايدي البعض الآخر — رقصة الحرب الرائعة ، وبالعيارات النارية تنطلق في الفضاء .

واذا ما سار البيرق ، واصطفوا وراءه حامله عشرات عشرات ، اخذ صفّان او ثلاثة يغنّون الحداء ، ومثلهم يغنّون « الجوفيّة » ، ومثلهم « الهجيني » ، وكل فريق يرقص الرقصة الملائمة للحنه . واللاعبون بالسيوف يتقدّمونهم ، وامام الكل لاعب « المجوز » وهو قصبة مزدوجة تُخرج الحانًا جيّاشة جميلة . وهكذا حتى لا تصل الجموع الى ساحة المعركة إلّا وهي نشوى لا تهمّها كثرة الجيوش المعادية وقلّتها ، ولا تقف قبل ان تتوسّط صفوف الاعداء وتهزمهم او تبيد .

قلت انّا إذا خرجنا من هذا الجوّ الجبلي الخاصّ ، لا يمكننا ان نفهم الشعر الجبلي فهماً صحيحاً . فانت إذا قرأت مثلًا هذا البيت :

إنْ نتلتو يا النشامه ، الموت سنّه وإنْ سلمتو سالمين من الشّانه

لا تجد فيه شاعريّة فائقة الحدّ ، بل هو ساذج كل السذاجة إذ يؤكد لهؤلاء الشجعان انهم إذا ماتوا قتلًا فالموت سنّة ، وإذا سلموا فهم سالمون من

الشهامة . لكنّ رأيك فيه بتغيّر ، ولا شكّ ، إذا سمعت جمعاً من الشبّان يغنّون وراء بيرقهم ، ويردّدونه نحو العشر مرّات بلحنه الخاص ، عرفت سرّ شجاعة هؤلاء الشبّان واستهزائهم بالموت وتفضيلهم اياه على الحياة في الجبن والشهامة . ومثل هذا القول عن الابيات القليلة التالية ، والغناء بها من اكثر ما سمعت إثارةً للحماسة والانفعال :

قُمْ ، يا خوينا !
شدّ الركاب والسير جانا
قم ، يا خوينا !
مسوزر يسدّينا
ضربو عطايب بوم الكواني[1]
مسوزر يسدّينا !
واليا رينّا
شبّ طويل وعاهلو عالي
واليا رينّا ! الخ . . .

وددت لو أكون موسيقيّاً لأضبط هذه الالحان كتابةً ، إذن لكان لهذا البحث قيمة اكمل وفائدة اتمّ . ولكن ما لي وللتمنّي ما دامت محاسن شعرنا الجبلي كثيرة اجتهد في تبيانها فيما يلي ، ما دمت لا استطيع ايصال موسيقى هذا الشعر الى اذني القارئ . ولكن لنبيّن قبل ذلك ما هي الآثار الشعريّة التي بين يدينا والى ايّ عهدٍ يرقى اقدمها .

المجموعات الشعرية

إن اقدم ما وصل الينا من الشعر الجبلي يرقى الى اوائل القرن التاسع عشر . وهذا لا يعني ان اهل الجبل لم يقولوا شعراً قبل هذا التاريخ . ولكن طريقة توارث هذا الشعر ، وقلّة من يعرفون الكتابة في بلادنا هذه قبل ذاك العهد غمرت ما تقدّم القرن الماضي من الشعر بالنسيان ، فلم نعد نعرف عنه شيئاً واضحاً اكيداً . لذلك كان اقدم الشعر الجبلي المعروف اليوم هو شعر اسعد نصّار ،

---

١) الكواني : جمع كون وهو المركة

والشيخ ابي علي الحنّاوي . وهذان الشاعران شهدا فتوحات ابراهيم باشا المصري. واسعد نصّار اقدمهما تاريخاً وله قصائد قويّة يردّ بها على شيوخ القبائل المعادية للدروز ، الى جانب الغزل الرقيق ، الـذي سيأتي ذكره في محلّه . اما ابو علي الحنّاوي فله قصيدة رائعة يصف بها حرب اللّجاه التي دارت بين جيش ابراهيم باشا المصري والدروز . وهذا الشاعر لم يمنعه من قول الشعر كونهُ رجلَ دين ، فقد اجاد في ملحمته هذه كلَّ الإجادة . اما شعر هذين فقد وصل الينا في « دفاتر » خطّية محفوظة لدى آلهم حتى ايّامنا هذه ، وقد اثبت بعضها عبدالله النجار ، مـدير معارف جبل الدروز الاسبق ، في كتابه : « بنو معروف » الذي نُشِر قبيل ثورة الـ ١٩٢٥ .

وجاء بعدهما شبلي بك الاطرش ، واحمـد البحصاص ، وعبدالله كامل ، واسماعيل العبدالله ، وهزاع الحلبي ، ومنصور عزام ، وهزاع شرف ، وحمد الخطيب ، وقد عاشوا في النصف الاخير من القرن المـاضي وفي اوائل القرن الحالي . وقد وصل الينا شعرهم في « دفاتر » مخطوطة ايضاً . غير ان شعر شبلي بك الاطرش قد جُمع وطُبع في ديوان عنوانه : « ديوان شاعر الجبل في الشروقي والزجل » وذلك في سنة ١٩٣٦ ، بعناية الشاب يوسف محمد ابو راس.

كذلك طُبع سنة ١٩٣٨ ديوان منصور عزام ــ الذي عاصر شبلي ومات من سنتين او ثلاث ــ بعنوان : « نشر الحزام في ديوان منصور عزام » بعناية ولديه السيّدين فريد ويوسف .

كـما طُبع قسمٌ من شعر علي عبيد في مجموعة عنوانها : « ربابة الثورة » ظهرت سنة الـ ١٩٤١ ، وهي تحتوي ، مع شعره ، على شعر بعض رفاقه . وذلك بعناية ولده الشاب السيد سلامه عبيد . وعلي عبيد هذا من الشعراء الاحياء . وقد علمت ان هناك من يهتم اليوم بجمع شعر اسماعيل العبدالله ، معاصر شبلي ، تمهيدًا لطبعه في ديوان . وهذا ــ إن صحّ ــ سيكون له شأنٌ يُذكر بالنظر الى تفرّق اسماعيل المذكور وعمقه الذي لا يدانيه احد ، وإن فاقه الكثيرون وخاصة شبلي الاطرش من حيث الجزالة ، وطول النفس ، والسهولة والطبيعيّة .

اما الشعراء الاحياء الباقون فلم يُطبع شعرُ احدٍ منهم في ديوان ، ولعلّهم يفكّرون في ذلك . وانك لتجد مخطوطات شعريّة كثيرة عند ابناء الجبل . فكلّهم يتذوّق الشعر ويعتني بحفظه . وكلّهم يروي آلاف الابيات منه يتمثّل بها ويطيّب بها احاديثه عند الحاجة .

القسم الثاني : صفات اقدم ما وصل الينا من الشعر الجبليّ

اما اقدم الشعراء عندنا ، واخصّ بالذكر منهم اسعد نصّار ، والشيخ ابا علي الحنّاوي ، فكانوا لا يزالون يجهلون مذلّة النفي والانكسار . ولذلك كانوا في شعرهم يفتخرون او يهدّدون او يصفون . ولكنّهم لا يشكون ولا يبكون . يفتخرون بالشجاعة ، والإيمان بالله الواحد ، وعلوّ الهمم ، والعفّة ، وكافّة مظاهر الرجولة . كما يفتخرون بذكر المعارك التي اباوا فيها البلاء الحسن ، وعدد الجنود الذين قتلوهم ، والخيول التي ركبوها ، الى ما هنالك من صفات يراها الرّجل سامية لمجرّد دلالتها على القوّة والتفوّق والترفّع . من ذلك ما قاله ابو علي الحنّاوي بعدد الحرب بين الدروز والجيش المصري :

اوّل فتوح الحرب ، ذبح البصلي ، أخذنا خمسية حصان ، فرد خار
وكم بطل منّا خلاوي إذا لكد(١ على الجمع يدعي للجيوش دمّار
يفعل جم ما يفعل الذيب بالغنم يضرب اليافي الصّارم البتّار
وشبابنا بارودهم ، في كفوفهم ، زلازل : وفي المتراس هجمة نار
وكم طبّجي(٢ خلّوه مدعي على العجل، وخلّوا الآيات الملوك دثار
افخر نسبٌ في الارض تلقى نسبنا متجنّبين النار والميار
ترى جدّنا «النعمان» خلفة ساتم ، ومنّا حماة الدين والأنصار

. . . .

من بعد ذا ، ابراهيم جرّدْ علينا يبغي الحرابِ – عسكرًا جرار
دخل اللجاه ، زحفًا بجيش عرمرم ، وغنا قلايل ، والعدوّ كثّار
نطعنّاه ، تتناخى ، بقوّة بأسنا ، وصارت معاركْ ، والفرنجي ثارْ
سحنا كما غدر سباعٍ كواسرْ على القومْ بالبلطاتْ والبتّارْ

---

١) لكد : هجم .
٢) طبّجي : مدفعي .

ذبحنا الوزير وكل ضبّاط عسكرو ، وثلثين جيشو راح قصفة مار
اخذنا المدافع والجباخان والزخر ، والذبح لا يُحصى له مقدار
فهذي قلعتنا ، وهذي لجاتنا ، وتربة عدانا ، من دخلها حار
ستّين الف اللي انذبح من عساكرو ، ووافق ، ومالّحنا ، وفات الثار !

والقصيدة طويلة جدًّا لا مجال لايرادها كلها في بحثنا هذا .

ومن ذلك ما قاله اسعد نصّار يفتخر على الشيخ افندي التيّار زعيم قبيلة « ولد عَلي » ويتهدّده :

حنّا ، بني معروف ، نحمي الجارْ لو جارْ ، نقتي المزنّد قتيلك مانداريه(١
وسيوفنا الحدب تفري كل زنّار ، وحرّابنا لو صدّت بالدم نخليه
ما تذكر يوم مردك والذي صار ويوم الجنيته ، يا فندي انت ناسيه !

وقد يبدو غريباً لأوّل وهلة أن نقول إن هذا الشاعر اسعد نصّار كان شديد الحبّ عنيفه ، مع شجاعته الفائقة ، وروح البطولة التي فيه . ولكنّ هذا ليس غريباً البتّة إذا نحن علمنا أنّ الحب والشجاعة ما هما إلا مظهران للبطولة ، مظهران للكرم السامي الذي يدفع صاحبه الى بذل روحه في الحرب ، وبذل قلبه في الحبّ . ولنا في تاريخ آداب الامم امثلة كثيرة على ذلك . قال اسعد نصّار متغزّلا ، وكان قد توجّه من راشيّا الى جبل حوران ، تاركاً فيها حبيبةً له حال بينه وبين رؤياها ، كما توهّم ، جبل الشيخ :

فوق الجبل ، يا ريح ، سافر بالعَجَلْ ، قرّبْ عليكْ بيد خطوات المجال
نجمي غطس في برج عالي واختفى ، وطلّ ونغذ من خلف ظهرك ، يا جبل
نجمي غطس في برج عالي واختفى ضب الظلام الاسودْ حين انّو لنا ،
يا هالجبل ، اشفق عليّ من الجفا ، بس حيّدلك اشاره عالشمال !
بس حيّدلك اشاره لاقشمر ، اللي حياة الروح موجودنا معو
بحياة من كوّن ترابك وارّفعوا ، يا هل جبل ، لا تريد تيراني شمال !
يا هل جبل ، لا تريد تيراني لهاب ، قادر الله ينفتح لي فيك باب ،
لدعي عليك بالريح مع كثر السحاب حتى خلال المرج مشّكْ تنسل
حتى خلال المرج مشّكْ تنتلي ، الله يسلّط لكْ رياح وزارلي
يا هل الجبل ، عالبحر ربّك ننتلي حتى يقولوا : كان بالماضي جبل !

(١) المزنّد اسم البندقية تطلق عند الزناد . والقتيل اسم بندقية تطلق باشمال القتيل .

وتزيد عاطفته عنفاً فيخاطب الجبل قائلاً :

يا جبل هالشّيخ ، عالي ما أرفعك ! الله يلطّ لك رواعق تقلعك

هكذا كان شعرنا القديم جدًّا ، وهو من اوائل القرن التاسع عشر ، كلّه صفاء ، وصدق عاطفة ، وسهولة تعبير ، وطبيعة تشيع فيه روح السمو في العاطفة والترفّع في الاخلاق ، ويهيمن عليه جوّ من العفاف وصفاء الذهن سوف نراه يقوى ويتّسع في عهد شبلي بك الاطرش ومعاصريه ، مع اجواء اخرى قاتمة سنجتهد الآن في تبيانها .

القسم الثالث : شعر العهد العثماني

كان لانتصارات الدروز المتعدّدة على جيش ابراهيم باشا المصري اثرٌ بعيد جعل للجبل الجديد ذكرًا ، وادخله في عداد المناطق التي تهتمّ بها السلطات العليا — الباب العالي إذ ذاك — فصارت توجّه اليه الحملات العسكرية قصد اخضاعه ، فيقاومها وينتصر عليها حيناً ، فيجمع من فلولها الاسلحة الجديدة والأعتدة الوافرة . ثم تعيد الكرّة عليه فتخضعه وتنتقم من قادة العصيان فيه بالقتل والسجن والنفي وبانواعٍ من العذاب لا تحصى : من الضرب الشديد ، والكيّ بالحدائد المحميّة ، وما الى ذلك من ضروب التعذيب. فكانت بين الدروز والاتراك سلسلة من الحروب يقع في كلٍّ منها جملة معارك يقوم فيها الدروز ، وهم لا يتجاوز عدّ محاربيهم الالف إذ ذاك ، بضروب من البطولة والتفوّق لا ينكرها اعداؤهم انفسهم . وكانت الدولة العثمانية تكثر من نفي رجالهم الى اقطار السلطنة النائية : الى طرابلس الغرب ، وكريت ، ورودس ، والروملي ، وسواها .

فتقوم بين المنفيّين وذويهم في الجبل خطوط متّصلة من المراسلات يضمّنونها كل ما في قلوبهم من نقمة او حرقة ، او يأس ، او رجاء ، او حنين ، او دعوة الى الانتفاض ، او تحذير من غدر الاتراك . وكانت هذه المراسلات شعرية على الغالب ، فكان لنا اجمل الشعر واصدقه واعمقه. وكان لنا شعراء كثيرون اشهرهم شبلي بك الاطرش ، واسماعيل العبدالله ، وهما من الدرجة الاولى . ثم محمد

الجرمقاني ، وهزاع الحلبي ، وحمد الخطيب ، وسواهم من المقلدين . ولا يسعنا إلّا الاتيان ببعض الملاحظات العامّة الشاملة لهذا النوع من الشعر باجمعه .

هو رسائل شعريّة : إذن يجب على الشاعر أن ينتخب له رسولًا شجاعاً عالماً باخلاق اهل البلاد التي يجتازها ، جَلْودًا على السفر في الليالي ، وان تُعَدَّ له مطيّة تتجلّى باجمل الصفات كالسرعة ، وقوّة الاستمرار ، والصبر على التعب والعطش والجوع والحرّ والبرد ، وعليها عدّة تامّة من رحلها وخرجها وما يحتاج اليه الرسول من الزاد . وبعد ان يصف الشاعر كل هذا ، ويدلّ رسوله على الدرب ، ويوصله الى المكان المقصود ، يقول للمرسل اليهم ما يريد ان يقوله بسرعة وايجاز ، او بتطويل حسب الغرض المقصود . على ان اعداد الرسول وتسفيره قد يتجاوز في اتساعه القسم الآخر من القصيدة . وينهي الشاعر القصيدة بالصلاة على النبي ، او بالتماس شيء من الله . وقد تكون المطيّة ذلولًا او فرساً او سفينة ، او الريح مثلًا ، وقد لا يكتفي الشاعر بمطيّة واحدة بل « يشدّ » عدّة مطايا او « ركاب » كما يقول : يصف كل واحدة منها اين تقيظ ، واين تربع ، ومن اين اصلها ، وما هو لباسها . وهكذا كان لنا قصيدة العشر ركاب لشبلي بك الاطرش ، وقصيدة العشر ركاب لاسماعيل العبدالله وسواهما . على ان هذين الشاعرين هما السابقان وخاصّة شبلي . وبقية الشعراء ما جاؤوا في « شدّ الركاب » إلا ببعض صفات هذين الشاعرين مقلّدين مقتبسين ، واحياناً سارقين .

شبلي الاطرش واسماعيل العبدالله :

ولا يخلو من فائدة ايراد مثالين على « شدّ الركاب » احدهما لشبلي بك الاطرش ، والثاني لاسماعيل العبدالله . قال شبلي بك بقصيدته المعروفة « بالعشر ركاب » :

قاض الغرامي ، يوم شفتو بتامي ، والدمع عامي ، والشطا في عظامي ،
من كثر ما بي ، يا ربع ، واعذابي ! رشّح شهابي بالمفارق رهامي .
من عقب ذا ، شدّيت عشرة سراحيب الياشوا ذوعاضم كالدواليب ،
اسرع من اللي يقطعوا الدوّ تذويب من غير طولـه مثل زف الحمامي .
ـ الأوّلـه من خاص ركب اللحاوي ، وشدادها ما كلّفوا كل غاوي ،

تامن عليها ، لو مشت بالملاوي ، بس انت جوّد حيلها والرماي .
– والثانيه خزّيتها من النياها ، يا ذكرت الله يوم غاروا تواها ،
اسرع من الدولاب مدّت خطاها ، من خلفته ما وقفت للساي .

وهذا الى ان يصف الرابعة فيقول عن سرعتها :

الياشت غدوه من أرض المديته تلفي دمشق الشام ، قبل الظلام

الى ان يصف العشر ركاب ويلبسها من اشدّة القصيم والخراج والاسلحة مع الزاد للمسافرين ، ويوصيهم بما يلي :

يأهل الركاب ، ركّابكم ولّفوم ، فوق الركاب رواحكم ودّعوم ،
اما الديار اللّي تبو تهجوم ، بيهم تراك ، وبعد بيهم رواي ،
من أزمير مدّوا طالبين المراويح ، اوّل نهارٌ خذوا عليهن مشاويح ،
الما زرفلوا مثل النعام المدايح ، يحدوح في عرض الظلامات عامي .
في وقم عشره انقرا الترك تلفون ، اصحا نقولوا ركابنا اليوم تلفّون ،
يا ربعنا ، في لقاهم ، ما تعرفون ، والضيف مالو في وطنهم مكرامي .
عا أدّنا من عقب تسمه لَفِتْي ، ومن القفيل صاروا صراصير جبّي ،
يا أهل الركاب ، تولّسوا الشرق عنّي ، خُذوا يمين نوقّموا للعلامي .
عادياربكر وماردين بقفاها ، عا حلب الشهبا وهلّي وراها ،
حماه وحمص اصحوا تياتوا حدّاها ، عا جلّق الفيحاء تلقوا السّلامي .
يا هيه ، يا لّلي فوق عشرة ركايب ، تقهقرولي فرق عالي النجايب ،
الدرب عا غبها وهكّ الشطايب ، على الجميدي ، على يار الحماي .
هونيك تلفوا ديرة العزّ ، يا طروش ، علمي جم صلفين في ساعة الهوش ،
كرام اللحى ، ذبّاحة الخيل وكبوش ، بعُوجْ المناسف فوقها السّمن عامي .
يأهل الركاب ، ركابكم ريّضوهن بوّجه القاعد ركابكن توّخوهن ،
فضّوا الكتاب الباعثوا سلّموهن ، هم يفهموا مضمون فحوى كلامي .
الكل منّا يليس غيّب سعدنا لامّا اندهكنا يا لرّبع وأنسعدنا !
حنّا الذي جوّا البحوره ابعدنا ، يا جوّاد ما ردها شماتي وملامي .

. . .

البعض منّا بالرّبع عسكريّه ، والبعض في رودس بحاله زريّه .
والبعض مثل حوالنا بالرّديّه ، وانتو حكمكم بعد قطعة نظّامي !

وهكذا الى ان ينهي القصيدة بقوله :

صلّوا على المختار سيد المخالق ، يشفع لنا يوم ازدحام الخلايق ،
وبساعة ينشف جا الجسم والريق ، ساعة حشر يوم تقوم القيامي .

ولنعرض الآن قصيدة اسماعيل العبدالله المنظومة على هذا النمط للمقابلة واستزادة المعلومات عن هذا النوع من الشعر الترسّلي ؛ مع العلم ان شبلي اشتهر في الشعر ابتداء من سنة ممدوح باشا ، اى سنة ١٣١٤ هجرية (١٨٩٦ م.) ، وتوفي سنة ١٩٠٤ ميلادية ، بينما اشتهر اسماعيل بالشعر سنة سامي باشا الفاروقي ١٩١١-١٩١٢ م. وتوفي بعد ذلك . فالأسبقية إذن لشبلي .

قال اسماعيل :

من كثر همّي ، يردف الموج بحري ، اشرب بحسّي ، وأنصف الدمع دمّي ،
جرحي غزير بالمآقي دمّي ، والشيب عمّي مفرق النحر والراس .
من عقب ذا تدّيت شنره عرايد ، حبلًا يزعزع الحديد المبالد ،
ان دوجن وأقفن حقيق عرايد ، شي غدان ايّام للهجن مرواس .
— الأوله ما دنّيت للسالق حمره ذعاره من طوال الساحيق ،
مثل العشرد ان جفّوه الدفافيق عيّت تواطق هادي الهضل ووناس .
مرباعها مزّ أقصى النواصف اليامان ، والفيظ من بصرى لياغيل بوسان ،
ما لاغه بدبرة النور ذبّان مشحاه حوران العذا روس الطماس .

وهكذا لكل ذلول اربعة ابيات من الشعر حتى يشدّ العشرة وكايب ، واذا به طوّف بلاد العرب وذكر مراعيها ومياهها وواحاتها المشهورة تما دفع الأمير عبدالله ، امير شرق الاردن — على ما سمعت — ان يقول لدى اطّلاعه على هذه القصيدة : « إن هذا الشاعر يعرف عن بلاد العرب اكثر من اي بدوي » وبعد ان يهيّئ للراكبين سلاحهم وزادهم ويطمئنهم الى ان السفر لن يكون طويلًا بقوله :

ما من بيذ ، الدرب مسرّى ومصباح

لانه كان مسجونًا في دمشق — ويقول :

مدّوا من الفيحا اذان الغيابي ترشدوا ، واخذوا معاني كتابي ،
اين « براق » ادعوا يسوم الركابي من دون « شفًا » لا تقلّون بناس .
اقصى معنّاكم لمرمان ومتان ، مافي مخمّصهم شبابًا وشيبان ،
علمي جم يتمّابك الكون عيّان إن كان ما راس البنا هدّم الناس .

ثم يخاطب الدروز قائلاً :

يا دروز ، كار جدودكم كان تبنوه ... بالسيف الحق المثولث يعضّوه ،
واللي مدوّر غرّة الربع ، خلّوه ... لا بد ما يعقب من الطب نكاس .
واللي مدور يا لربع « كان ما كان » ... عوايد الدنيا فوايد وخسران ،
لو كل واحد متكسّر صار سلطان ، ... ما هي شريفه ، والرفاقه بحباس !
كِبّ الرّنق لا صار بَذّو جماله ، ... واللي بضيقه ما تبيّن فعاله ،
اللّبوة اللي ما تذرّي شباله ... ما ظنّي تدرك عشاها من باس .

. . .

وشيوخنا ناموا على موقد النار ، ... مثل الارامل بندبوا دمنة الدار ،
ما منهم اللي خاف من مهرّج العار ، ... وسمودنا في لجّة البحر طمّاس .
يا الله تفرجها علينا على حال ... بجاه النبي من دبرة الظلم غتال ،
تفتح لنا باباً على الخير مقفال ... وتفك عنّا كرب العسر وغماس .
واختم كلامي بالصّلا والسلامي ... عالمصطفى المختار نور الظلامي ،
يا الله ، يا معبود ، تحسن ختامي ، ... واطلب شفاعه من وساوس خنّاس !

وهكذا تتوالى القصائد على طريقة واحدة وتختتم كل واحدة منها كما تختتم الأخرى . غير ان اسماعيل العبدالله كان معاصراً لشبلي في آخر ايامه لا في اولها . فيكون شبلي اسبق الى ابتكار طريقة « الركاب » ، وإن يكن اسماعيل العبدالله يساويه بجمال النظم وقد يفوقه متانةً وعمقاً وموسيقى ، ولكنه يقصر عنه سهولةً وخصباً وتفاؤلاً . فشبلي الاطرش متفائل في اكثر شعره . اما اسماعيل العبدالله فتشاؤم دائماً . ولعل هذا التشاؤم هو الذي منح شعره صفة العمق التي يمتاز بها من شعر سائر اهل الجبل . فشبلي ، اذا تألم ، نسب كل ما يصيبه الى الاتراك . ولما كان يعتقد ان الاتراك من طبعهم الخيانة اصبح يحذّر منهم ولا يستغرب عملهم . اما اسماعيل ، وإن يكن سجين الاتراك ، فلا يعزو همومه ومصائبه إلّا الى قلّة الاصحاب وعدم اعتناء اهل الجبل بخلاصه من سجنه . وهو مولود ليشقى ويتعذّب ويبخلون عليه بالموت حتى بثمن :

من مبتدا عمري حياتي رديّه ... والموت غيّوا ، لا يبيعوه بثمان

وانت ، وان سمعت شبلي يشكو ، فلا تشعر بقوّة الالم . انما تشعر بشموله ودوامه . اما قوّة الالم فتشعر بها عندما تقرأ شعر اسماعيل العبدالله ، فهو يجلب لك

اليأس ، ويصل تزًا الى قرارة نفسك حتى ترثي له وتحنو عليه . ولكنك لا تشعر انّ شبلي بحاجة الى رثائك وحنوك فهو اقوى من هذا . ولعل مكانته كزعيم للجبل كانت تمنحه الغلبة على الضعف والتفوّق على كل الآلام . فبينا ترى اسماعيل العبدالله يقول :

أنا علّتي عيّت على الطبّ والدّوا ، ابى ان يعالجها جميع طبيب
فلا المثل يفرجها ، ولا حاوي العرب ، إلا بروحي ما هنيك تطيب
امضّي نهاري عايب العقل ، طاير ، وأنْ نمت ، نومي مثل يوم صويب
ولا من يواسيني ، ولا لي جلاده ، امضّي الليالي بالفكار هذيب
ميلا غدّاني ، وميلا ولاياني ودبني حربي كل شوق حبيب
مسجون بي رقّ المهاني بذلّه ، مربوط محكون الحبال قضيب
اليمن عاندني ، وكسّر حوانحي ، ولالي برجو السّالمين نصيب
اللّي جزوا البحرين ، واللّي بأسرها وديارها صارت مقام غريب

. . .

اقوم ، ترى الرجل سدّا وساعده ، من قبل . يرضع بالدّيود حليب
إن طاب سعدك ما يكيدك عدوّك ، نسايب تقضي والشوع نصيب
ما عمر قالوا السهر يجلب بلاوي ، ولا فاد منع اللايذات رقيب

أو ، في قصيدة ثانية :

هنّا لمّاني مزع القلب حرّه ، حرّ العلاق برايب السمّ حرّه
نام الفرحا اللي قديمًا بحرّه سكّر ، وفتحلي من اليأس ببان
يا ناس كيف الراي شيرو عليّ ضاقت بوجهي ، يا جواد الفضّه
من مبتدا عمري حياتي رديه ، والموت عيّوا لا يبيعوه بثمان

. . .

بيلّه(١ رماني بالمخاطير مفروح ، مهتوك ستري ، لو تواريت ، مفضوح
والله لشي ضنق الإيدين لاسوح ، لكن شوّدني عن الدّوج سجّان
واليد كمنت ما وارتني بقاعه ، من دون خلق الله ، حرمت الشفاعه
والروح ما خصّص شركها نزّاعه ، أشركتْ كان يردّني اليأس يقان
واليوم ، في هالدّور هذا ، حسابي من خلقني يجمع مصابي كتابي
ما عفرني كفير يُذنّبْ عذابي من مبتدا الدنيا وما بعد يوذ الآن
إن جيت أعدّ هموم قلبي وحسرات مصايبًا خابع عددها ' مثالات
الدّار سابت ، والحواريث عورات ، وانا هكيمًا واجبًا مَنّ وحساب !

(١ الدهر

إذا بنا نرى شبلي يصف حزنه بشيء من السخاء والقوّة ، وإن كان حزنه لا يقلّ عن حزن اسماعيل :

قال شبلي ، وقد نُعي اليه اولاد خاله ، من قصيدة طويلة مؤلفة من مئة وعشرة ابيات :

وهمّي جبال الشام تعجز تشيله ! أيا قلب ، من مرّ الفراق ارتاح
ايا قلب ، من مرّ الزمان الذي عدا علينا شراب من الصديد قداح
الله يغوث الدهر ما أردى سوالفه ! يسقيك من عقب الزلال نحاح
يسقيك كاسر الهم والغم والظما بَن آمن الايّام لا يرتاح

. . .

ولا ظنّتي من نسل حوّا وآدم فيها رحل صاحب شيَم مرتاح
ما غير ودّع واترك الهم ، واتّعظ واللي ترك كل الامور ارتاح

أرأيت كيف عزّى نفسه بعد هذا الحزن والهم والحرقة ؟ أرأيت كيف يريد الّا يكترث لجميع هذا بعد ان وصف آلامه وحزنه بما يزيد على المئة بيت ؟ وهو قد اعتنى بشدّ عدّة ركاب باول القصيدة واعدّ لها كل ما يلزم من متممات السفر — أليس هذا فعل الملوك إذ يهتمون بترتيب حفلات الدفن الرائعة عندما يفقدون واحداً من ذويهم مهما بلغت درجة حزنهم ؟

واسمعه يتذكّر :

كنّا بحوران المذيّه بلادنا ، هدولاك ايام وذول ايّام ؟
هدولاك ايّام السعاده مع اهـ وهدول ليالي مشّمات اقتام
نصير ، وعند الله تدابير حالـ الحرج مع طول الصبر يلتام
ترى الصبر عند الضيق اقمع من اندوا وعند القضا كل الهموم احلام !

واسمعه يحنّ الى بلاده

وجواي اشوف صفيح وشبيح وقميص (١) وحوى اليهودي ، وغير بدين باقي

. . .

يا الله ، بجاه النبي هود وادريس . يا حيّ ، يا صمود ، تسمع اصواتي
تفكّنا من محضر السوء وأمثيس . من قوم ما تفهم كلامي ولغاتي
يا طالبي ، يا غالب الكل ، يا حبس ، يا محبس الظلم الرجيم الرقاتي

---

(١) تلال في جبل الدروز .

نظهر سعدنا ، بعد ما أحنا مطاميس ، في بحر قوم عهودهم خاياتي
من يأمن الثيبان ، وايًّا النواويس ، ياكل كفوفه من الندم والشاتي
من بعدها ، يا ثور ، يا حمار ، يا تيس ، تأمن عهود المتاينين البناة
لو صار من قبل ما خلق لوط والعيس ، يقولوا الاتراك عهودهم خاياتي
دولة تخوّن متاملين التلابيس ، ولا دين بينهم عن الفاحشاتي
باعوا النفر للروم باربع نواحيس ، دكّو قلاع المانه النابياتي
مثل الافاعي ليّنين التلاميس ، والسم بأنيابهم كاوياتي
حلوين في صفّ الحكي والتلابيس ، مثل السراب اليا رآه الظماتي
يا رب ، لا تجعل حياتي نتاعيس ، من بعد دكّ حصوخا الطايلات
يا الله ، نطلبك الفرج والمخالبس ، بجاه النبي اللي شرّف الكاينات

ثم تراه ، بعد ان يحنّ الى داره ويصف مصابها وماضيها العظيم بقصيدة رائعة ، لا يقطع الرجاء من العودة اليها بل يصيح عن لسان الدار :

ردّت عليّ الدار ، تبكي من النيا ، وتقول هذا البعد مانيش رايده
والله ما كان الفراق بخاطري اما الدهر خوّان ، هذي عوايده!
وان خيّروني بالمخاليق كلّها ، ما نيش عن حبّ المحبّين حايده
واللي رجوت اليوم ارجوه باكر واذا جرى لا بدّ تجري موارده
ونحظى بشوف التايبين من اهلنا ، ونشخّص النربه مثل فصل طايده
واختم كلامي بالصلاة على النبي المصطفى حجّت اليه النجايده .

ومهما بلغ حزنه والمه في الأسر لا يصل اليه خبرٌ يُبرّده من الجبل حتى يصرخ والفرح ملء قلبه :

قلبي على فقد المحبّين ولهان ، واحرّ كبدي من الملوم التوالي!
وهمي سمك من يوم فارقت حوران ، وعيني بديران الرفاقه المتوالي

. . .

وانا تحرّى الملم ، والقلب حزنان ، وارجي الفرج من ربّ خلّاق عالي
جانا خبر من يمّ صلخد وهرمان ، نصين يا وجوه الذياب المشالي!
عيدو افندي شارب المسر سكران ، جاهم جادر مثل فحل الجمالي ،
يطلب سباع البرّ بنّا ودخّان ، ويريدهم مثل النجر للحوالي
جوه النشاما ، وبعد لليوم ما بان ، هدّوا عليه قصور شمّخ عوالي
وللحين تحت الرّدم من غير دفّان ، مع مشرف آغا لا جهتم بوالي!

. . .

ماحوا عليهم ، واطرب كل سكران ، واقفوا مثل غيم حدّاه الشمالي

الفين من حمر الطرابيش سفسان ، « بيون » ذبحوا من الفروم البالي
ضبع الكوبرس عازمو ضبع حبران ، وصار اللحم « بيون » مثل التلالي

. . .

من قبل ربع يطلحوا الند بطمان ، صلفين يوم الحرب ، يوم القتالي
ببلاد سوريا بلا شك فرسان ، من عجرهم اياك ان تحمد رجالي !

. . .

وقد اجاد شعراؤنا بتشبيه هذه المطية الكريمة فشبهوها بطير النعام ، وشبهوها بالريح وشبهها شبلي بالقطاة قائلاً :

تشبه قطاةً حامل الماء باتها تعي فروحاً بالحصاد صغار !

وقد استوفوا جميع صفاتها الحسنة من تراص اللحم وجمال الخطى ، وقوة الاحتمال . ولكن شبلي يمتاز من الجميع بهذا الحنين الى داره وبلاده ، هذا الحنين الشائع في شعره يكسبه رونقاً وطلاوةً ويمنحهُ قوة الانتشار والذيوع حتى اصبح شعره يُنشد — في كل ليلة — في كل قرية من قرى الجبل . واصبح بين شعراء الجبل كالمتنبي بين شعراء العرب ، وغر العدوان بين شعراء البلقاء . فحكمه وامثاله على كل لسان وفي كل مناسبة ، لانهُ لم يترك موضوعاً يهمّ النفس الشعبية إلّا طرقه واجاد في كل المواضيع .

وله قصيدة سينية — وان تكن بعض قوافيها صادية — تُدعى «الألفية» في لغة الشعب عندنا : لانها تبتدئ بالألف وتنتهي بالياء . وعلى كل حرف ينظم الشاعر بيتين او اكثر كلٌ منها يبتدئ غالباً بالحرف الهجائي نفسه . وقد خص المذهب الاخلاقي الجبلي بهذه القصيدة . لذلك راينا ان نوردها كلها لمعرفة هذا المذهب ، وقدره حق قدره . فهو ولا شك سامٍ قد يغير رأي من يجهل اهل الجبل فيهم ويطلع الناس على ما عندهم من المحافظة على اسمى اخلاق العرب واكثرها عملاً على شهرتهم وعلو مكانتهم :

الألف : الّف المالي لطالبه : من خاض بحرًا بالمخاض وغيص
يا سامعين القول ، اصغوا لنصتي وشوفوا معانيها مع التشخيص :
البآ : بُرّك لا تبطل لبذله ، واضب لبنّك دوم بالتحسيس ،
درب البخل يا صاح عارٌ على الفتى من غير ما يقولوا فلان خسيس .
التآ : لا تأمن على المال خاين ، لو تحلفوا ، عندو اليمين رخيص

ردي المصابل ما ينير طريقتو ، والطبع تحت الروح بالتخصيص .
الثآ : ثبّت لفظ فمك من الزلل ، واحذر من الترويد والتنفيص ،
لا شك درب الكذب عارٌ على الفتى ، من خاس حكيو ، بالرجال يخيس .
الجيم : جارك لا تجافيه وتجحدو ، ولا يجحد الجيران غير ابليس ؛
وصّى النبي بالجار من دور آدم ، وحيآ كلام الناغمين نفيس .
الحآ : حيي الضيف ، إن جاك زاير ، واضحك بوجهه ولا تكون عبيس ،
الاجواد مثل الرّوض يزهو على الندى ، والانذال صآنة عل ويبيس
الخآ : خلّي الناس تذكر حسابك بالخير ما هو في كلام بخيس ،
عرض الفتى مثل الغزاز ، إذا انشر ، فاحرص على عرضك من التدنيس .
الدال : داري الناس تأمن شرورهم ، خذ ما أستطعت من الانام جليس
منهم اسد رئبال يرضيك بالعطا ، ومنهم حمار ، وبعد فيهم نيس
الذال : ذِلّ النفس فهْ وحده يخصّص ذنوبك في غدٍ فحيص
النفس مثل النار ، لو هبّها الهوا بتشمّل الاخضر مع اليبيس
الرآ : راح العسر ولّى مع الصبا ، وعيش الفتى عقب الشباب تنيص
يا حلو أيّام الصبا ، يا رفاقتي ، فيها غوّندات البكار تقيس .
الزّاي : زوّدها من الخير ، واجتنب ، واحرص على نفسك من التلبيس
ولو تشير عليك بالخير ، يا فتى ، قالمرّ متلبّس جا تلبيس .
السين : سيفك لا يفارق وسادتك ، خلّيك فرز من الرجال حريص
ترى عدوّك ما يخلّي عداوتو ، بالليل يسري ، وبالنهار يئيس .
الشين : اهل الشور تسر بلادهم ، ويخرب بلاد العامري التخييص
حنّا الذي من يوم كثرت شوارنا ، رحنا قطايع ، والمليح حبيس
الصّاد : صون السرّ عن سائر الملا ، وخلّي مخاضك عالرجال وغيص
لا تآمن الغدّار بالناس تندم مثل الحصيني دايمًا بلّيص .
الضاد : ضليلين العقول المُماره همرك بشرخم بروح تفيص
ما يرفون الطوط اصلُه ، من البصل ولا يرفوا الجمعه من الخميس .
الطآ : طُبّ الجسم في قلّة الأكل ، وطُبّ النفوس الحفظ والتدريس ،
والله يحمي للخلايق اعالمم ، وما أظنّ ميزان الحساب يخيس .
الظا : لا تظلم ترى الله يظلمك ، وبعد الصّمود يعدّوك تنكيس
خيار الفتى جزّام عزّام عالصّبي ، غفّار زلّات الصديق ، انيس .
العين : عادات الكرام التّفآيل يعطوا الكحيله ، والمهر ، والسّيس ،
انآ رديّ الحال يظهر عينه لو خيّطولو فروتو بمصيص .
والغين : غربتنا برودس وغيرها ، وباكريت جوّات البحور تغيص .
عسى الله يفرجها ، ونرجع جميعنا ، ولّا درب عا ربّ العباد وغيص !

الفا : فيهم مثل «أجوَدْ» بالعطا ، وان شاف طالب حلّ باب الكيس ،
وفيهم سرابًا بزيزتًا سمهداني شاطر بكثر الحكي والتلبيس .
القاف : قلنا الصبر يشفي من العلل ، صبرنا كما صبر سوادي العبس ،
رجا بأن الله يجمع شملنا ويردّنا غابلادنا تنكيس .
الكاف : كون بقسمة الله راضي ، رزقك من الدنيا كفن وقميص ،
لوان عندك الف مليون من الذهب ، لا بدّ تسكن باللحود رمس .
اللام : لمّ الشمل ما بين الملا ، وخلّيك سيّد عالجميع رئيس ،
من يأمن الدنيا يذوق غبوحا ، يرى الصبح ظلمه بالسواد دمس .
الميم : من لا يتّقي الله بندم ، انظر الى يعقوب اخوه المبغض .
العين جاب البدو دربو على الشّقا ويعقوب جاب اتنعش سبط نفيس
الثون : نار الوجد تكوي ضايري من الشوق ، عذّاني لسيع قريص ،
ان كنت انا يقظان ، اراعي خيالهم ، وان غت ، اشوفهم بالمنام هديس .
الها : هداك الله ! خذلي رسالتي على ظهر سلطان الطيور حصيص
نسرّ على شيل الرسايل مجرّب من عهد سيّدنا الامام ادريس .
الواو : وديّحا على دبرة اهلنا ، وصّي الجميع ، اصحا الكلام يخيس :
من يأمن الاتراك يصبح مثالنا : بالليل يذرع ، وبالنّهار يغبس !
اليا : يهودي من يأمن لتركي ، بلا شك الترك جنس نجيس !
صلّو على من شرّف الارض ذكره محمّد المختار ، واخزوا المبس ! »

واذا اراد الجليّون ان ينشدوا الشعر في الحنين الى الوطن ، او في الفخر بالإنتصارات الماضية والتفوّق على جميع الخصوم ، فشعر شبلي امامهم يقدّم لهم ما يريدون في كلّ فنّ . ولعلّ ايرادنا بعض امثلة من حنينه الى داره يقوم برهانًا على صدق عاطفته ، وخلوّ سليقته من كل تكلّف . قال شبلي ، وهو في منفاه :

يا دار ، قلبي ، دايم الدوم يطريك ، وان غت ، اشوفك بالمراحيس ، يا دار
يا دار ، ما ظنيت عالسمر نجزيك ، لكن حكم الله على الخلق مسأر .
يا دار ، رحنا بالممالك تشاريك ، ما تندينا في تناويح وشعار !
يا كبر همّي ، ان كان غيري يراعيك ، وحنا بحبس الروم جوّات البحار
واذا تذكّر شوفة ، لا جواريك ، اللي لميح خدودهن مثل الازهار
يا حلو لمّات الرفاقا بمناليك ، والبخت يرضى ، والمناجيح دوّار
يا دار ، كنت من الغبايل تحذّيك ؟ ولاني بحال اللي على الخرب مبار
لمبوا بك اليأن ، واهل التحاريك ، لاما غديت للسخالق ميار
يا دار ، كانوا يتحروكي المهاليك ، وكنتي مزار ، ودايم الدوم تتزار

كم من امير وبك ياما احتمى بك ! من دبرة ابن سعود لبلاد سنجار
سطّام ابن شلان حانا احتمى بيك يومن لفى من ذيفة الحسر ، فرّار
من قبل «فيصل» «وابن دوخي» وذوليك، امل النهال اللي على الخيل شطّار
ما عمر طوط الروم خوّف امالك ، ولا يوم بني في هواجس وفكار
كنّرت شيوخك ، كان ربّك بجازيك ، سلّط عليك الترك صلفين الاشوار
عفناك ، ولو ان النقل يسخالك ، من يوم شاح البك ابو سيف جرّار !

وهنا نصل الى نقطة حسّاسة من شعر شبلي . فهو يكره حكم الرّعاع كرهاً شديداً . هو الذي شجّع الحركة الشعبية في الجبل ، فأثار الفلاحين يطالبون بتثبيت الملكية . ولكن هؤلاء لم يكادوا ينالون هذا المطلب حتى اصبحوا خطراً يهدّد بالفوضى وينذر بالقتل والتدمير . هم كالسّيل الجارف لا يعرف حدوداً ينتهي عندها . لذلك ندم شبلي على ما كان من امره وامرهم ، وراح يصفهم ، ويجوهم بقصائد مريرة يذكر فيها تسابقهم الى السّيادة ، دون ان يكونوا اهلاً لها ، وتفشّي الجهل والبطالة فيهم الى حدّ بعيد .

❁

واشتهر شبلي بالغزل كاشتهاره في سائر مواضيع الشعر ، كيف لا وهو رهيب النعمة والترف ، رقيق الشعور ، مرهف الحسّ ، بعيد مذاهب البصر والفكر ، قويّ العاطفة ، كريمٌ ، شجاع . والكل يعرف ما لهذه الصفات من متين الصّلة بالحب ، ولا سيّما إذا اجتمعت في شاعرٍ يرى الدنيا من خلال شعره ، شاعر شامل الشاعريّة يجعل الشعر كالكلام العاديّ حتى لقد قيل أنّه كان يُملي على عدّة كُتّابٍ عدّةَ قصائدَ مختلفة ، في آنٍ واحد ، بمواضيع مختلفة .

ونحن نورد الآن مثالاً واحداً من غزله لتبيان طول باعه في هذا الباب ؛ مع ما كان عليه من الشجاعة والميل الى الحرب . ونرى في هذا المثال تنوّع الاوزان وتعدّد الألحان مما لا نجده في سائر شعره :

من الجبل المحرد ، للشرفين ، لبلاد غزّة مصر ، الى عمّان
يا من خبر ، يا ناس ، قولوا لي شلي ابتلى في حبّهم انسان
يا من خبر ، يا ناس ، قولوا لي بأهل الهوى حيوا عاسوّلي
من هجرهم ضيّعت معقولي ،

كاني قريص الداب ، والروح بالترقا ،
لحمي وجسمي ذاب ، من لوعة الفرقا.
من الهمّ راسي شاب ، والقلب في حرقا
يا بو عيون هداب ، والدقّة الزرقا !
يا شين شوف الروح معلولي ، من هجركم ، يا قايد النزلان

من هجركم يا قايد الماني شوف كيف الروح ولماني
خايف انك بس تسلاني
يا بو عيون ملاح ، وتطول غرتنا
ربك عل سماح ، هذي مصيبتنا !
محبوب قلبك ساح من عظم فرقتنا
يا حيف عقلي راح ! يا ربتنا متنا
من قبل هذا الحال بشاني ، برتاح قلب العاشق الولهان

برتاح قلب العاشق المحروق يا زين ، يا حلو النبا والذوق
عزّي لمن في حبّكم مشتوق
بين السما والارض ، والريح يلعب فيه
لو ان عليّي فرض كان الأمل تقضيه ؛
لكن اجت بالعرض ما حيلتي يا هيه !
حبّك حرمني الغمض قلب الشقي يلقيه
انت ، يا محبوب ، يا مدقوق عالخدّ الابيض الاحمر الريّان

عالخدّ والزندين الك دقّا شفتهم بالبين من حقّا
يا حلو ما بتشفلك شقّا
وتشوف حالي كيف مضى بفرقتكم
ميتين الف ، يا حيف ! ما كبّر مصيبتكم !
حارم عليّ الكيف بالايام غيبتكم
قلنا غدا بالصيف بلكي نلاقيكم
وتشوف ردعة خدّك الزرقا يا بدر بازل ، يا قمر نيسان

يا قمر يا بدر ، يا عالي غير شخصك ما انا بيالي
ان خيّروني انت راسالي
من دون كل القيد ما لي وليف سواك
يا حلو ما بتقيد قلبًا بلي جواك

يا اظرف من الصيد بكثير ، ما احلاك !
ما قال عمر وزيد كان المثل ربّاك
ياما هفا هالدرب جمالي ابن « الوشاحي » وين راح « سنان » !

ابن الوشاحي في هواهم راح مجنون ليلى في الدراري ساح
مشوقهم ما لو قلب مرتاح !
لكن نهى من قبل عنهم جميع الناس
غير ان عقلي هبل حتى شربت الكاس
يا بو عيون الذّبل ومضنّدي شاس
لا د الغرب والقبل ولا في الخد والراس
مثلك ربي من قبل عبد ملاح ولا من بعد تخلف انسواك

ولا من بعد تولّد البدايات ولا ببلاد الروم كرجيّات
ملكي عند رضوان حوريّات !
مثلك عمو هالوسنى يا بو حصر منزول
ماحلا بياض العنق من فوق حلو الزّول !
عذّبي صويب ذنبك من هجركم مطول
محلا القتل والشنق ولا فراقك حول !
يا بو خدود ظراف ورديّات وخود طلع التين والرمّان

وخود طلع التين والتفاح ، مشوقهم قديش جاح وناح !
ياما هفي بالهجر ياما راح
من قبل ناس كثير ماتوا بحرضم !
من الهم والتشحير كبرت مصيبتهم
يشدا رفيف الطير قلبي بنبيتهم
يا ناس ، ما التدبير تنشوف طامتهم ؟
ونشاهده ، ونشرب ماه الراح ونبوس ثمّو خاتم سليمان !

وتحن اذا تركنا شبلي واسماعيل العبدالله لنتكلّم عن الشعراء الذين عاصروا شبلي ، وكانت بينه وبينهم مراسلات شعرية فقلّدوه في الكثير من شعره ، وإن يكن هذا التقليد كان عفويًا تنجرّ اليه سليقة هؤلاء الشعراء من تلقاء ذاتها تحت تأثير المؤثرات نفسها ، مستوحين الجوّ نفسه ، متحرّكين في الدائرة

نفسها — إذا نحن فعلنا ذلك وجدنا شعرهم يشبه شعره من وجوه عديدة : فهم بالنسبة اليه كاتباع المذهب الشعري الواحد . وإذا انت درست آثار زعيم المذهب او المدرسة ، فكانك أتيت على شعر رفاقه جميعاً .

ومن هؤلاء الشعراء نكتفي — بعد ان ذكرنا اسماعيل العبدالله — بذكر هزّاع عز الدين الحلبي ، وهزاع شرف ، ومحمد الجرمقاني ، وحمد الخطيب ، ومنصور عزّام. فشعر هؤلاء فيضٌ من شعر شبلي الاطرش ، وهم وابأه كنجوم الثريا الواحدة ، وإن يكن هو اشدّهـا لمعاناً ، واعظمها حجماً ، وابعدها في الإنارة مدًى .

غير انه لا بدّ لنا من كلمة نقولها عن هزّاع عزّ الدين، واخرى اوسع عن منصور عزّام.

فهزّاع عز الدين الحلبي شاعر شهيد شنقتـه الحكومة العثمانية ، على اثر الحوادث التي جرت بينها وبـين الدروز سنة ١٩١٢ المعروفة بحوادث سامي باشا . وقد شنقت الى جانبه عـدّة اشخاص من زعماء الجبل . ومن قصائده المشهورة قصيدته اللاميّة التي يصف فيها حرب اهل الجبل مع عرب الضمير . وفيها من القوّة وموافقة الحال ما ينمّ على شاعريّة صحيحة ، ومعرفة تامة بقيم الالفاظ إذا وُضعت مواضعها .وهذه بضعة ابيات من مطلعها :

أوّل كلامي نحمد الربّ العلي ، القادر المعبود ، مولانا الأزل
والشكر للهادي الأمين الافضلي خاتم جميع الرسل ، واكرم من بذّل
من بعد ذا قال الأديب مرتّلي ابيات صحّ ، ولاجا هرج الزلل
قم يا قلم اخدم يدّي رعجّلي ، فوق الطلاحي جدّ لا تشكي الملل
واكتب قواني من معاني مجملي ، واغنب رسولاً يقطع الدّوّ ، ويصل.

منصور عزّام

واما منصور عزام الشاعر الشيخ،الذي لم يمت إلّا بعد سنة ١٩٣٨،فيجدر بنا ان نقف عنده وقتاً.هو صاحب الديوان المطبوع سنة ١٩٣٨ . وهو خصبٌ نظم في مواضيع كثيرة كشبلي ، فمدح هذا الاخير ورثاه . وهو ، وإن لم يكن قد سُجِنَ وعُذّب كشبلي في سجن مادي منظور ، فقد كان يشعر انّه في سجنٍ

معنوي بين الناس لا يفهمونه . وقد جرّه هذا الى طرق مواضيع لاصقة بنفس الشعب وعاداته وطرق معيشته فاجاد فيها ، وكان مبتكرًا . فهو يصف لك سهرة الفلّاحين ، وهم يتحدّثون بما يتعلّق باشغالهم الزّراعيّة اليوميّة وهموم عيشهم ومشاكل حياتهم . ثمّ يصف لك قلّة الاصدقاء وعقوق من عرفهم منهم وصعوبة التفاهم واياهم . وهو يقدّم النصائح لولده فريد ، وقد تعب على تعليمه وتثقيفه ، فيخطّ له الطريق التي يريد ان ينتهجها في حياته كلّها ويستوحي الاخلاق السّامية ، التي يرسمها ، من الدين ، واصطلاحات المجتمع ، والاختبار الشخصي . وهو يقلل من وصف الركاب ، لأن اكثر شعره في غير المراسلة ، وهو كثير الميل الى التعليم والتأديب حتى ليصحّ ان يقام له مذهبٌ اخلاقي تام بازاء المذهب الذي عرفناه لشبلي . وهو ينوّع اوزان الشعر اكثر من شبلي . كل ذلك باسلوب متين وموسيقى صحيحة الأوزان مؤثّرة الوقع . لا يؤخذ على شعره شيء من الرّكاكة او الإسفاف .

وإن يكن شبلي شاعر البديهة والطبيعة ، فمنصور عزّام شاعر الصنعة الشعريّة ، الشاعر العامي الميّال الى الكتابة العربيّة الفصحى . وقد اخذ بشعره — من حيث أنّه شعرٌ عامّي — ميله الى الفصحى وتعمّده الالفاظ المتونة والمتحرّكة ، على ما في ذلك من الاخطاء النحويّة ، ضررًا كبيرًا لا يعذر منصور عزّام عليه ، ويجعلنا نتمنّى لو ابتعد عن مثل هذا التقعّر غير المستحبّ . لكن هذا لا يمنع كون منصور عزام شاعرًا كبيرًا لا يضير به ان نقابله بشبلي وباسماعيل العبدالله . فهو شاعرٌ مثلهما ، وشعره منتشرٌ كشعر شبلي واكثر من شعر اسماعيل . وهو اقرب الى حياة الشعب من الاثنين . يلامس بشعره اوتار قلوب اكثر عددًا ممّا يلامس شعر زميليه ، ولاسيّما بما عنده من الحكم والتعاليم التي سهّلت حفظ شعره وساعدت على انتشاره والتنقّل به بين كافّة الطبقات . فمن تعاليمه قوله :

اوصيك لا تغشى بليل دريبه ، مالك ومال مسافر انبل واريب
إيّاك تشهد زور لو هي غصيبه ، الله لا يرضى بزور وتلاعيب
لا تستغيب الناس في كل غيبه ، يدريك علّام المغيّبات والغيب
لا ترافق الشينين اهل القريبه ، حذراك منهم رفقة العمّ للذيب

وله يخاطب ولده فريد :

اكرب عنان النفس لا ترخيها ، من خوف تتكردس ، انت واياها
اياك ، ثم اياك ، عرض النافل ، يرميك في نار شديد لظاها
لا تدعين الشيطان يدخل بيتك ، حسود نبع الكبريا منشاها
اوصيك دار الذل لا تسكنها ، لو انها بمارب طباق بناها

وله من ألفية :

الشين : شرساً ذو ضماير بناحها ، سوايد فيها تكمن مزاجها
لا تطمعن في نجاحك علاجها ، ذر ياساً من شحرة واعوجاجها
وعليك تعديل القوام غصونُ

النون : غث من أتته غوائلا ، وأكرم فقيرا ، كان إذ ذاك سائلا
لا غروَ أنّ المرء كالظل زائلا ، ولا تقول فلان ذو باس طائلا ،
فيأتيه من سعد الحياة مئونُ

وقال من قصيدة ترينا اسلوبه الخاص بالنظم :

قال ناشيها ، بقرطاس نميق ، ميم نون وصاد وار وراء تلاه
خاض فكري ببحر صافي عميق ، يا لهُ أجاج ما اوسع مداه !
فيه مطموس الفكر يغبط غريق ، حاذق الأفكار يسبح في مياه
كل تتبل طلطحي ليسَ خليق ، يفهم السرور ويداري سواه
او يروم الشبه بالناهي يحيق ، لا ينال ، ولا يجوز الاشتباه
قال : قامة ميس بقدّ رشيق ، قلت من اس الرشاقه والحلاه
صوت مطرب لا يعادله ضيق ، والسيطرى لا تعادله قناه
أين واخة الكريحة من الفتيق ! ملك فايح او عبيره في شذاه
هذا هو بحر الذكا ، لا هو عقيق ، خلّ رجلٌ لا يردهُ من حياه
عمت فيه ، ولا شربت إلّا الرحيق ، واشتفى منه غليلي من ضماه
بالتصور طالما ذهني يحيق ، يا خليلي ، هات ناولني الدواه
هيّي لي قرطاس ، عنّي لا تضيق ، تكتب رموزًا لفاهم ما خفاه
كل ما جاريًا ثابت حقيق ، انا عارف به من ابتداه
وأنْ أتانا ملق يتظاهر صديق ، كل متلوّن انا عارف هواه
بالحضور يكون كأنّ شقيق ، وهو مكمن مثل صلّ في خباه
في نجاحي وانشراحي كالشقيق ، بالملازم سعد واعطاني فناه
وان تكلّف في بلول الفم ريق ، بعدها بجلب خدامات الوفاه
وان تنقل من حوبق لحويق ، مستوي الحال ، ما يُرجى جناه

كم يقول ، وكم يذوق ولا يذيق وان تفوّهت الفريضه ، مدّ فاه
يترك الصاحب ويجنح للرفيق خبّروا فيها خبرين الرُواه
يا لَنا بي من زفير وشهيق ، آه من كيد النسا والفوز آه

الى ان يختمها بقوله :

يا إلهي ، نجّني من كل ضيق واستمع من عبدك الخاطي دعاه !

وله قصيدة يعدّد فيها اصناف البشر من العابد الضعيف يعبد الله ، الى الطمّاع عابد القروش ، الى المتواضع فالمتكبّر ، فالذكي ، فلطيف المعاشرة ، فالذي طبعه كِلابي فهو « ناهش ومنهوش » ؛ الى ان يقول — بعد ان يكون حذّر القارئ من النساء كعادته في اكثر قصائده مما يدلُّ على سوء ظنه فيهنّ :

كم قلت ! وكم وصيت ! راحت وصيّتي مثل العنا عند الذي مطروش
بحدي نعالم الحديثين حفظهم ، وهيهات ترسخ في عقول هروش
حقاً جليس السوء تفوت بالحشا ، لو كان جالس في قصر مفروش
مريت اجدّ السير الحق رفاقي اصبحت عثار الفكر ، مدهوش
غاني زماني عن اوطاني وخلّتي على دوّ خالي ليس فيه طروش
سوى الثعلبي والذيب والدب والضبع ، خاب الطلب واصبحت بين وحوش

واذا عرفنا ان منصور عزّام من الشعراء الجبليين المخضرمين اي الذين شهدوا العهد التركي فالحرب الكبرى فالعهد الجديد ، عرفنا قيمته كشاعر صلة بين القديم والحديث . وإن نحن وضعناه بين القدماء بدلًا منه بين المعاصرين فلأنه الى القديم اقرب منه الى الحديث ولأنه ، وان توفي منذ عهد قريب جدًا ، فانه عمّر نحو الثمانين سنة عاش اكثرها في عهد شعرائنا الاقدمين .

وليس هذا شأن الشاعر صالح عمار ابو الحسن الذي سندرسه بين المعاصرين ، وإن يكن عاش قليلًا مع القدماء . ذلك ان هذا الشاعر المشهور اشتهر خاصّة في العهد الجديد ، بعد العهد العثماني ، وإن يكن قد قال الشعر في ذلك العهد ، اي حوالي سنة ١٩١٠ - ١٩١١ — وكذلك القول عن فندي عزّام وغيره من الشعراء المسنين .

اما الآن وقد عرفنا شيئاً عن صفات الشعر الجبلي في الحقبة الممتدّة من مطلع القرن التاسع عشر حتى اوائل القرن العشرين . ورأينا ما في هذا الشعر

من الطبيعة ، والبساطة ، والخصب ، وصدق العاطفة ، وان اكثره من الرسائل الشعرية التي يرافقها ، بحكم الطبع ، اعداد لوازم السفر والمسافرين وتفنن الشعراء في كل ذلك ، مع ما لهم من الأساليب لنظم هذا النوع من الشعر الترسلي ؛ فقد اصبح بامكاننا ان نقلب الصفحة ونبدأ بدرس الشعر الحديث او المعاصر مقدمين لهذا الدرس بوصف عام لتطوره مع الايام تحت تأثير الحوادث السياسية ، والاجتماعية ، والفكرية ، حتى وصل الى مرحلته الأخيرة هذه ، وهي مرحلة انتقال من الأدب العامي الى الأدب الفصيح ؛ بل قل مرحلة الازدواج يعيش فيها الشعر العامي القديم العهد الى جانب الأدب الفصيح الفتي — ذاك يحاول ان يتجدد ليحيا ، وهذا يجتهد في ان يكون قويا ليطاول ويتغلب شأن جميع الاشياء في تنازع البقاء.

القسم الرابع

الشعر الجبلي الحديث

ما إن انتهت آخر حرب للدروز مع الدولة العثمانية حتى اشتبكت هذه بحربها مع ايطالية في طرابلس الغرب ، فأخذ الشعراء — شعراء الفصحى — كحافظ ابراهيم ، وولي الدين يكن مثلا ، ينعون على الطليان اكتساحهم لبلد عربي ، وان يكونوا قد انتزعوه من العثمانيين ، فمنهم من يناصر العرب الطرابلسيين لانهم عرب ، ومنهم من يناصر الدولة العثمانية ، لأنها شرقية اسلامية ، ضد دولة غربية مسيحية . أخذ الأدب العربي عامة والشعر بنوع خاص يميل الى التحدث بالمسائل السياسية فلا يكتفي بوصف الحرب لغاية بالوصف وحدها ، ولا يتكلم عن الامة العربية والشرق وما الى ذلك من المواضيع التي اخذت تشيع على السنة الكتاب والشعراء إلا ليبدي رأيا ، ويسن شريعة ، ويدافع عن مبدإ ، إلا ليوجه.

واخذ الشعر الجبلي — واهل الجبل مفطورون على حب العظمة في حرية وسيادة — يقوم بقسطه في هذه المعركة القومية الكبرى . واصبح يصطبغ

بصبغة سياسية عامة طغت عليه ووجّهته توجيهاً اخيراً : فاصبح يسجّل الحوادث ، ويجتهد لها ، شأنه شأن الصحافة . وجاءت الحرب الكبرى فاذا بالشعر تنطفئ جذوته ، إلّا فيما ندر ، وإذا باهل الجبل يعملون على الاستفادة من هذه الحرب بقدر ما يستطيعون : بلدهم خصب التربة يكرم حين تبخل السنون ، ويزهو حين تربدّ الآفاق . والبلاد حواليهم في محل ومجاعة فهم يبيعون الحبوب الى الاغنياء باثمان رابحة ، ويفتحون ابوابهم واسعة للفقراء اللاجئين من كافة الانحاء السورية ، غير مميّزين الدرزي من السني من المسيحي . كانوا القناة التي تسيل ، مصدرها اموال الاغنياء ومصبّها العائلات الفقيرة التي اراد لها الحظ ان تلجأ الى الجبل . فهم يبدون كاحذق التجار في معاملاتهم مع الاغنياء الرأسماليين ، وكاسخى الكرماء في معاملاتهم مع اخوانهم المعوزين . كانوا جميعهم يمثلون هذا الدور النبيل من اصغر الفلاحين الى اكبر الشيوخ . ومن الانصاف ان نسجّل هنا لدار شبلي الاطرش — وكان فيها المرحوم الأمير سليم الاطرش — مأثرة جليلة لم نستطع قدرها حق قدرها إلّا عندما شهدنا حربنا الحاضرة هذه ، ورأينا مدى ما يقاسيه الشعب من ألم وحرمان وتعرّض للمخاطر . وهذه المأثرة هي تقديمها الطعام يومياً — طيلة مدة الحرب — في ساعات معينة من النهار ، داعيةً اليه كلَّ جائع في البلدة سواء أكان فيها من قبل ، ام قاده اليها ما سمعه عن هذه العادة الجميلة .

شغل اهل الجبل اهتمامهم بمشاكل الحرب عن الشعر — ولكن الى حين — فانهم ما ان علموا بمقدّمات الثورة العربية حتى اخذوا يرسلون الوفود لمفاوضة قادتها ، واخصهم المرحوم الملك فيصل ، والاتفاق معهم على الاشتراك في هذه الثورة . وقد طالما حاربوا الدولة العثمانية وحدهم ، وها هم اليوم يجدون انفسهم امام جيش عربيّ يحارب اعداءهم المزمنين بفكرة قوميّة استقلاليّة ، فكيف لا ينضمّون اليه ؟ بل كيف لا يكونون في طليعته ؟ ذهبوا الى الصحراء واشتركوا في الحملة العربيّة تحت امرة المرحوم فيصل وما رموا السلاح من ايديهم حتى دخلت الجيوش العربيّة المظفّرة دمشق ، وكان فرسان الدروز في مقدّمتها . ورفعوا العلم العربيّ في مدينة الامويين وعادوا يمثلون بخمرة هذا الفتح المبين .

وإذ ذاك بـدأوا يحنون الى الشعر ؛ بدأوا يعودون اليه الفترة بعد الفترة . فكان شعرهم هذا شعر ذكرى ، وفخر ، وغزل ، شعر من وضع رأسه — الى حين — على اكاليل الغار ، فنام وهو لا يعرف شيئاً عما تخبئه لـه الاقدار . . .

ثم توالت الاحداث على الجبل ، واهمها تلك الثورة الدرزية التي عرف تفاصيلها الخاصّ والعام ، فكانت من ملهمات شعرائنا ، وكان لنا شعر حماسيّ يُثير الناس ، وشعرٌ حربي يصف معاركنا وانتصاراتنا الجديدة ؛ وفيه ، طبعاً ، تجديد كثير ، بالنظر الى ما كان عليه ان يصفه من الأسلحة الجديـدة كالطائرات والدبّابات والرشّاشات وما اليها . ثم كان لنا شعر الصحراء الجميل ، وكان لنا عهد جديد للشعر الترسّلي يدوم نظمه عشر سنوات على خط دائم بين الصحراء والجبل . وفي هذا الشعر لوم الذين القوا السلاح قبل الاوان ، وهجاء الذين حملوا السلاح ، ضدّ اخوانهم ، طمعاً بالمال ؛ والحنين الى الجبل ، والأمل بالرجوع اليه يوماً .

وكان هناك شعراء ينظمون الشعر الغزلي ، وقـد اطلعوا على شعر رشيد نخله وسواه من شعراء الزجل في لبنان ؛ فحصل في شعرنا تجدّد مال به الى الرقّة والطلاوة .

وكان هناك شعراء لم يعد امامهم مجال لنظم الشعر السياسي ، فاخذوا ينظمون الشعر الأخلاقي ، او الاجتماعي ، فيذكرون منافع التدخين ، ومضارّه ويتجاوبون . ثم تحدث حادثة في قرية فيصفونها ويتغنّى بها المغنون فتنتشر في كافة انحاء الجبل وتصبح حديث الخاص والعام . واخذ الرمز يتسرّب الى شعرنا .

وسمح الوقت والهدوء بابتكار اساليب غزليـة جديدة فيما يسمّونه «عروس شعر» ، اي امرأة يرسلها الشاعر الى بلاد عديدة ، او رجال مشهورين ، في بلاد مختلفة ، فلا تقبل ببلد لها مسكناً ولا بزعيم لها زوجاً ، بل ترجع الى الجبل لتختار منه احد وجهائه . ثم يموت احد زعماء العرب فيرثونه ، وتثور فلسطين فيؤازرونها في نضالها ، ويموت الملك فيصل فيرثونه ، ويخوض رجالهم في غازي ، ثم يموت هذا ، فيقطعون الرجاء ويبكون بدموع حرّى في قصائد ممتازة .

وتنشر في هذه الفترة بعض الدواوين ، واشهرها ديوان شبلي الاطرش ، ومنصور عزّام ، فيطّلع الناس على شعرهم مكتوباً بعد ان حفظوه حفظاً . ويُطبع ديوان جديد لعلي عبيد وبعض رفاقه اسمه : « ربابة الثورة » وفيه نماذج رائعة لكل ما ذكرناه من انواع الشعر الجبلي الحديث . وفيه مقدمة بقلم السيد سلامه بن علي عبيد ، صاحب الديوان . ولهذه المقدّمة قيمة لأنها تأليف شاعر شاب بالعربيّة الفصحى يقدّم لشعر والده الشيخ الزجلي .

ونحن إذ نعرض لهذه الفترة الممتدّة من اوّل القرن العشرين حتى يومنا هذا سوف نجتهد بنوعٍ خاص في رسم معالم التطوّر الشعري عندنا وذكر ما طرأ عليه من تجدّد ، وتبيان صفات بعض الشعراء الأحياء ، دارسين ثلاثة شعراء درساً مطوّلاً بعض الشيء . وهؤلاء الشعراء هم :

صالح عمار ابو الحسن المعروف بـ« عمار » ، وهو شاعر شعبي شعره كثير الانتشار .

وسليمان عبدي الاطرش ، شاعر الغزل والموسيقى بلا منازع .

وعلي عبيد ، شاعر السياسة الجبليّة والعربية .

صالح عمار ابو الحسن

هو شاعر الثورة ، ومسجّل كافة معاركها ومحتسى رجالها . وهو يُعرف في الجبل بـ« عمار » .

إن « عمار » شاعر شامل نظم في كلّ فنون الشعر : نظم في المديح ، والرثاء ، والهجاء ، والغزل ، والترسّل ، والفخر ، ووصف المعارك . ولكنك لا تكتشف شاعريّته القويّة وموسيقاه الفنية إلّا في وصف المعارك . وهو شجاع خاض غمار معارك الثورة باجمعها ؛ فهو إن وصفها ، فإنما يصف ما شاهده بامّ عينه لا ما سمع به . تُفتتح الثورة في عرمان فيصرخ :

عرمـان مفتاح الحرايب وكادي صارت فرج للبشتمون النهيبـا !(١
شيوخهـا وشبّانهـا والاولادي ضربـاتهم بوم المهـاوي عطيبا

١) نهيب الارواح طيباً

وتتوالى المعارك : من معركة الكفر ، الى معركة المزرعة ، الى معارك عرى ، والمجيمر ، والسويداء ، والمسيفره ، وام الرمان ، وابو زريق .

يا راكباً من عندنا مبزعيّة مثل الظبي بروس النّغل تتاش
ما عدّ من عندي على الرحب ، والصفا تلقى على « الأزرق » قبل خب الادغاش
سلّم على الباشا ، وخبّر عطوفتو ، واحكي الصحيح ولا تكون غشّاش
كون جرى بأبو زريق ما بنحكى ، بو العقل من رزم المدافع طاش
جرّد علينا جنود بصرى ، وصلخد ، بكل المراكز جندي ما خلّاش
خمسين رمكه راحت بكرم واحد من فعل اللّي بعد ما ادّاش
صدنا كما تصد سباع الكواسر حاطوا منا وعياً « علي » ينحاش
لو بعد نصد ربع ساعه وشلها ما كان واحد من رجالك عاش

ويعرّض بفريق من الثوّار لم يسرع الى النجدة فيقول :

(بغيصا) ربعاً كثار وفوارس لكن جمعهم عالحرب ما اجاش
ما هو سبب تأخيرهم يا رفاقه ؟ بنهار ريح ، وقال ما نسيماش
دَوحُ المَدَلّ مثل كفي المغامر سمع الرّمي من كان بالوشّاش
البعض منهم كان بالنوم غارق ، والبعض منهم دايري عجحاش

حجّتهم بعدم المجيء واهية فصوت البارود كان شديداً حتى أن من كان بالوشّاش — وهو تلّ يقع في الصحراء — كان يستطيع ان يسمعه . ولكن :

اللّي حضر بالكون متّا كفاهم ، ربك ذياب وعادها بكباش

وشعر « عمّار » الحربي له قيمة غنائية كبرى فجموع المتحاربين لا تتغنّى بغيره الّا نادراً . وسهولته ، وكثرة الامثال والحكم فيه ، جعلته ينتشر في الجبل انتشاراً كبيراً . ولا اظنّ أنّ في الجبل شعراً عمّت معرفته ، والتغنّي به ، سائر طبقات الشعب — بعد شعر شبلي — كشعر عمار . ففي كل مجلس وفي كل عرس او حفلة ترى المغنّين يتناشدونه ويردّدون اسم صاحبه . حتّى ان عمار يُعد من يصمد في الحرب حتى النهاية بأنّه يدبح من شعره — وهي اكبر مكافأة يمكن ان يطمع فيها شجاع :

واللّي يصمد لتالي يدبح من قميد عمار

ومعنى ذلك ان اسمه (اي اسم من يربح هذا القصيد) سينتشر مع هذا الشعر ويشتهر بشهرته ، وكفى ذلك الجبلي فخرًا ان يعرفه اصغر انسان في اصغر قرية من قرى الجبل .

وعمار يجيد كافة انواع الشعر من الشروقي ، الى القصيد ، الى الفن ، الى المطلوع ، والمعنى . وعمار يمثل في عالم الشعر دورًا لا يمثله سواه . وهو يعرف قيمة نفسه ويحرص على الاحتفاظ بمكانته . وهو اوّل عهده بالشعر كان جنديًا اجباريًا في الجيش العثماني ، في جبات الرملي . وكانت العصابات البلغارية تعيث في المملكة العثمانية فسادًا كلما أتيح لها ذلك — قبل الحرب الكبرى — وكان صالح عمار في دورية مع بضعة جنود اتراك وارناووط ، واذا بهم يصادفون الكابتن مارشان وعصابته ويشتبكون معهم بمعركة فيهرب رفاق صالح ويأبى هو أن يهرب « لأنه عربي » ، كما قال لي . بقي وحده واخذ يحارب العصابة برباطة جأش فائقة الحدّ ولم ينثنِ حتى قتل الكابتان واربعة من جنوده وشتت شمل الباقين . وذهب الى الجثث فاخذ سلاح القتلى وملابس الكابتان وعاد الى مركزه فطلبه المشير لمقابلته ورقّاه الى رتبة جاويش ، ومنحه مكافأة مالية كبيرة ونشر اسمه في الجرائد والنوادي فأرسل الى أخيه قصيدة يلتح فيها الى هذا بقوله :

راحون خمسة كبيرهم شيخ بلثار من فعل اخو عمرا يوم الكواني
كل الحكومة تغارت والكومندار وقولة « عفارم » بالجرايد كتّاني

وهكذا فان اولى قصائده كانت لوصف معركة وكانت شهرته بوصف المعارك . وهذه الشهرة هي التي حملت كل من يحتاج الى جواب على قصيدة ان يطلب الى عمار نظم هذا الجواب . فإذا جاءت الامير حسن الاطرش قصيدة من زيد الاطرش يقول له فيها :

يا حسن ، وحدي حامزة بلادنا ، كنّا جا غبي حلاها وطيبها
لمبوا جا اهل القاصد بجيشهم ، لمّا تداعت ، والعدو قد وطي جا
لومي جذا تاعي ، ماش غيرهم ، مُنّ سابيها ومنهم نكيبها
ومنهم اعادة مجدها لو تفاندوا ، لكن يوم رتادها جُو نكيبها
لاما غدت رمّته من الضيم تاويه ، واللي تداعى بجدها قد نُسِيْ جا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

دعّه حالهُ ، يا خوي ، ما هي بشغلنا دار المهانه ، والتي ، قد نسيها
لا صار ما فيها تغذّي دخيلنا للموت كان غودها ونحطي جا
لا صار ما حنّا حرارًا بقولنا حارم علينا غيبها وغطي جا

. . .

وان عاضبت ما هي على البال طاربا بُعدًا ولا رفقة اسافل شبيها

يكلّف الامير حسن صالح عمار بالإجابة عنه فيقول عمار قصيدةً منها :

يا زيد ! همّي زاد ، والمدّ امتلا من لابة ، يا زيد ، دنّت رقاجا
من قولتك ، يا زيد ، كانوا حدودنا الدنيا دوار ، وسعد جدّك رق جا
ذولاك اياماً ، وهذي بدالها ، انظر بني عثمان كيف انقلابها
دنياك ما دامت لكسرى وقيصر كم واحدٍ ، يا زيد ، الآي انتقل حا !
يا زيد ما ظني علينا ملامه بالدم خضّبنا الفادي وغلاجا
أمّان سلطان الحرايب جيبها ما تسلّمن يا زيد ليش انقلاجا ؟
كلّت سواعدنا من الطعن بالعدا ، وجثاثهم ملّوا الرّوابي وتراجا
منا انفقد ، يا زيد ، الفين فارس وبلادنا بالدم حثّوا ترابها
تبكي عيوني ، ودمها بنّ ثوبي ، ما طال ما المّيا معزّل غيابها
لولا احتكار المال ، يا زيد ، والطمع بلادنا خير كان عزّك زهاها
وعيال تتوّى بالمخوس وامّهم لا ما غدوا بالبرّ يثمروا ذهابها
يا زيد ، ما حنّوا من همه بجهد بنفّاتهم ، يا زيد ، سدّوا طوابها
ما واعيهم غير التي تحوم بالسا كم من نسا واطفال اللي طوابها
لوم المصيبه عاصبيه مصيبه ، تومك على اللي للمكاتب جابها
هي سباب الشرّ والمرك والفتن اوراق سوري اليوم ملّوا جيابها
لبوا بها العلّا ماحب واحون دون الإراده هم صاروا اسبابها
صاروا بواليًا عبنا بلا حفا من عقب ما كسبوا ذخاير سبابها
دهر المتا ، يا زيد ، كسّر جواحي على صغر شلّح ضرومي غرابها
عتار انا ، يا خوي ، من حور ما جرى على مناصب قيس يتبي غرابها
لو كان جمع العمّ طيون بالوغا ما ظنّي يا زيد إنّا نهابها
ثوره شريفه ترفع الشان ، يا فتى ، لكن عطّل عالقضيّه تهّابها .

ثم يرى تكالب الناس على المال والرشوة والوظائف وما اليها فيصف الناس بقصيدة رائعة فيها نقدٌ مُرّ وتهكم مؤلم على ضعاف النفوس ولئام الطباع ، فيقول :

غنّى الذي وضح شهاته من العنا ، ينظم على حرف الزمان خطاب
يالله ، يا لي عالم السرّ واخفا ، تفتح لنا من بحر جودك باب
لا تعوّزنا ، يا ربّ ، لباب غيرك بجاه النبي والأربع الأقطاب

سبحان ربّ ضاقَ الشعر عالمه يا ما خلق بين الأنام عجاب!

. . .

وفيهم بخيل وحاير المال والغنا عالفرش يعسل بيهْ ألف حساب
مثل اليهودي داخلٌ دون خارج مالّا بلا بذلٍ سمين كذاب

. . .

وفيهم قليل الحق ، اصحا تشابكو ، قضبْ البُطل من يوم شبّ – وشاب
ما يعرف الحق الذي انْ انزلوا حق ويا كل اجرة التعّاب

الى ما هنالك من وصف السارق والكاذب وشاهد الزور الذي يبيّ اليمين على الطريق قبل الوصول الى المحكمة.

اما غزله فيتجلّى في قصائده الفنية وهو لا يخرج عن مصطلحات بقيّة الشعراء في الوصف لحسن القوام ، وبياض الخدود ، وسود العيون ، وطيب الأصل ، والرائحة . . . الخ .

وهو في رثائه يكثر من الأسف ، وتعداد محاسن الفقيد التي تنحصر عنده في الشجاعة ، والكرم ، والوفاء . يستشهد من اقاربنا عشرون شاباً في الثورة ، فيرثيهم رثاء صادقاً وتصبح قصيدته نَدْبَةً تندبها نساؤنا في المآتم . وهو ذو قصائد بارعة يرسل فيها عروس شعره تجول في البلاد فيصف لها كلّ زعيم وهي لا ترضى . ووصفه هذا مؤلم يصيب المرمى : فمن الجبان الى الخائن ، الى الذليل ، الى البخيل ، الى الذي صورته لا طعم لها ولا لون ، ثم يعيدها الى سلطان باشا فترضى وذلك بقوله :

قُلْتُ لها ، يا مستوره ، يا غدوره انعي عيد الثوره الباشا سلطان
قالت : هذا مطلوبي عرفت الذوبي وهذا اقصى مرغوبي شيخ الشيخان

. . . فتحط العروس رحالها وتستريح . وعلى ذكر عروس الشعر هذه نقول إنّ من الذين اقتبسوا هذا النوع من عمار واجادوا فيها الشاب محمّد ناصر الدين الذي ارسل عروس شعره تجوب اقطار الدنيا دولةً دولة فلا ترضى بأحدٍ بل تعود الى الدروز ، لانها ترى فيهم صفات لا تجدها في سواهم ومن بعض ما في هذه القصيدة :

ثم قلتِ عن روسيا فيها سالين الزعيم ،
حزب الشيوعي فيا ازود من بحر عميم ؟

قالت : ما هوّي ليّ فاند الجيش الأحمر

المايا كتبك وازي شوفي زود الطيّارات
هتلر زعيم النازي يخصملك بأرات
قالت : لو انّو جازي ما ريدو هذا جبّار

موسوليني إن كان لك ذوق هوّري زعيم الطليان
اجليه صاحب مشوق دومًا عاطول الزّمان
قالت : لي عن اهل البوّق[1] جنّب هذولي مقزّر

جمهوريّة افرنسيس إن كان ردني حكومتنا
يا عيبي على باريس ما هي مثل دبرتنا
قالت : لبران الرّئيس أمرّ والبحر تكدّر

... الى ان يأتي على جميع دول الارض فلا ترضى فتاته فيقول لها اخيرًا:

مين بدّك انت ، يا « فوز »؟ مين بدّك يا بنت الناس ؟
بتمني بدّك لدروز شعب حكواس فرّاس
للشجاعه مالك عوز يضربوا العدا بالراس
بواسل وثقال الروز من قديم الهم اساس
قالت : والله ، لا حُوز فيهم وان الله قدّر

جبل الدروز يا ناس ضاقه احسن فتاة
ام الذهب على الراس ، اجمل من كلّ البنات
حنّا من زمان إلياس سُبينا اهل الرّايات
اختبها بخلّاق الناس حاصي اعمال البشر !

وصالح عمار كما قدّمت شاعر شعبي لا يترك موضوعاً إلّا طرقه. اجبره الزمان مرّة على العمل في « ابو زريق » مرابعاً — اي مزارعاً يقاسم على الربع — فيحدث له ما يغضبه من سلوك اهل القرية فيقول من نوع « الفنّ » قصيدة مطلعها :

صاحي لدهرك ، يا لمرابع ، صاحي لا تكن يبوزريق انا النصّاحي

يمدّد فيها الاسباب التي جعلته يتركها ويدعي عليها بالدّمار فتنتشر قصيدة عمار ويكره المرابعون « ابو زريق » كرهاً شديداً ، ولا يرضى بالعمل فيها إلّا رجلٌ

[1] الخيانة

يعجز عن العمل خارجها . وهكذا نرى هذا الشاعر — ونتمنى عليه ان يعنى بنشر شعره في ديوان — يؤرخ في شعره جميع الحوادث في نحو نصف قرن ، وسوف يكون شعره مصدراً مهماً من مصادر التاريخ عن هذه المنطقة في هذا النصف الأول من القرن العشرين.

وكذلك القول عن سعيد عز الدين الحلبي صاحب الملاحم الكثيرة القوية المتصفة بصدق العاطفة وصراحة اللهجة وطول النفس .

علي عبيد

واذا كان لنا شعراء كسعيد عز الدين يسجلون تاريخنا الحربي ، فإن لنا شاعراً يسجل تاريخنا السياسي . وهذا الشاعر هو علي عبيد صاحب « ربابة الثورة » التي جئنا على ذكرها . فعلي عبيد هو الذي يذكر لنا كيف تطورت السياسة الجبلية منذ الحرب الكبرى حتى يومنا هذا . ومن الغريب ان الشعراء كلهم يعرفون انه شاعر السياسة . ولذلك تراهم يكتبون اليه بواضيع سياسية . فهلال عز الدين ، وحسيب ذبيان ، وقاسم ابو خير ، وعلي الملحم ، وسواهم يبعثون اليه بقصائد سياسية يُبدون فيها آراءهم ويسألونه رأيه . وهو يجيب الكل بما تقتضي الحال . وهو حاكم صلح السويداء ، قبل الثورة . وهو من وجهاء هذه المدينة . لذلك كان يستطيع ان يطلع على مجرى الحياة السياسية اكثر من سواه ، ولذلك رأيناه يتنبأ بنشوب الثورة في اجوبته على قصائد هلال عز الدين . وهو يرافق الثوار الى الازرق ، ثم الى النبك ، في الحجاز فيتولى مهمة تشجيعهم كلما احسَّ منهم ببعض اليأس . وهو يؤرخ الأعياد فينظم قصيدة بمناسبة عيد الاضحى كل سنة يذكر فيها كل ما يجيش في خاطره من الذكريات والافكار والآمال كقوله بالعيد التاسع (لهجرة الثوار) :

العيد مقبل ، ما لنا بيه حاجه العيد لي في وطنهم عزيزين
وش عيدنا والذُلّ خيّم روائجه(١ ماذا نجاوب لجموع الميدين
العيد حق العيد يوم اللجاجه ، بين الطراد ونغت سود الدخاخين
هذاك يوم العيد ، يوم الملاجه(٢ ، إما نحوز المجد والّا شهيدين

١) روائح . ٢) الملاقاة .

هادها ، ولكنه بعد حين
بحكم الله ربما صبورين
الناس النور لازم ترى بيين
اليأس تمرد كله بائين
ـ زرع الخير عند الزبيين
طبع ودو سيوف شطيرين
النبي المختار خير النبيين

اوضات السورية عام ١٩٣٦ حتى
. والمهرجانات الى ان يعودوا الى
ف آلام الفلاح وفوضى التوظيف.

طرش

تستطلع التقلب على فرح الشاعر
دائمة : ابتسامة السخرية .وعدم
من الدرجة الاولى . بل هو اكبر
ياة من ملذات ويدعو الى الاقتداء
ثاره بشعر باسم منير لا يجد الحزن
جيل . يُنطق الرباب — وهي على
البيانو ويتغنى — اكثر ما يتغنى —
ر صافٍ لا تشوبه شائبة . يُريك
به قصيدته ، فتحسّ جميع ما احسّ
يب دعوته ، لولا انك — عندما
توب الى رشدك ، فتتابع طريقك
ما اجمل شعره فهو النزلي وفيه من

« الوحده » دروزه والشوام
ت باريس شافت زينها
لكس اللي مشمّع بالنام
حد ، مع ليمو ، في وردو !
عالمتين كريش النام !

اع الشاعر عن عالم الأرضيات ،
شيء هناك مستصغرًا كلّ شيء غير
لب شيئاً يجب أن يُستر . فالحب
. أن « يخلعوا عذارهم » في الحب
اتمًا الى التعابير والصور والألوان
لخلّاب . ونحن نورد فيما يلي مثالًا
كر فيه :

اعه مع حبيبي خوش بوش
س المسالك بطريقي والدروش
ف كل الكون تحتي كسكما
كُنْ محسي بالسما بمسل عشوش !
السما في عليهم شي حرام
رد والريحان حتى المردكوش
شي حرى : عندي يصير سخرا
ستحي منهم ، وهم ما يسألوش
وحبيبي عن العواذل نستحي
خالي ما في كلّ دوش
ع ديرك العرش حولينا تسبح
اعو ، يباركو ، ما يزعلوش
ث في عالدني : حلو حابب حلو
ـ الذي ما يفهموا ما ينبلوش ! الخ . .

النزلي بل يمازجان كل شعره على
ان ، وتلمسها خاصة باوزان شعره

منبت الأبطال والفرسان

تنوّع الأوزان وتعدّد الألحان ما يشهد بحسن ذوق الشاعر الموسيقي. فهو صاحب « المطالع » الكثيرة والمقطعات التي يندر وجودها عند سواه من شعراء الجبل. ومالي اصف شعره بالكلام العاجز عن استيعاب جميع صفاته وجمالاته، وباستطاعتي ان اورد هنا « مطلوعاً » واحداً يبيّن بنفسه عمّا عند قائله من شاعريّة قويّة ونَفَس طويل وطبيعيّة عريقة لا أثرَ فيها للتكلّف او الصنعة :

إن كان عندك مثل ما عندي غرام ... طاب كبفي عيالي ، يا سَلام
كنت بجعل مترلي فوق النجوم ، ... وكنت بتمشّى على ظهر الغمام
كنت بتمشّى وبيني مترلي ... فوق ظهر سهل بيني متلي
دوم عنّي « بيجنا » « وهوبدّلي » ... وشوف كل الكون ضحك واتسام
وشوف كل الكون ازهار وربيع ، ... والليالي العزّ ، والعصر البديع
عز مدقوق السما ، عالي ، رفيع ... فوق موج الزاديو وفوق الانام
فوق موجات السواني والرياح ، ... تسكر رباب الهوى ، من دون واح
شو على بالي بني ! وزين الملاح ... لو حصلي طاب كبفي والسلام !
لو حصل لي صار بيني وبينهم ، ... حب متادل سوى انينهم
هم على ديني ، وأنا عادينهم ، ... يا بتعبد ربنا يسأ الصنم !
يا بتعبد خالق الدنيا سوى ، ... يا بتقصبه على دين الهوى
يا بنجطها عطش ، يا إرتيوا ، ... يا بناكل ، يا نجطها صيام
يا بناكل كلنا ، يا نجوع ، ... يا سكن بقصر يا نجوع
يا بنترل يا بنتملا طلوع ، ... يا نحيا تنبتنا ، يا عدام !
يا بنحيا عالمحبّة تنبتنا ، ... يا نقهر فرد نكبّي عينا
اتّفقنا بالقسام ودينا ، ... لا جدال ولا نزاع ولا خصام !
لا جدال ، ولا نزاع ، ولا عنا ، ... هيك لازم هو يكون وكون أنا
المحبّي ما يلذّ الها الجنا ، ... غير ما المحبوب كالبدر التمام
غير ما المحبوب آيه من الجمال ... شو نفع المحبّي والوصال
بجميع الصيد ما مثل الغزال ، ... او قمر شق الكواكب والظلام
أو قمر نور الكواكب وقمرو ، ... بي وليف ما اظرفو ما اسكرو
مثل حسنو ما حكوا ولا خبّروا ... وان وصفتو ما بجيبو بالكلام !
وإن وصفت عيون سود بهدّبي ... مخمات وذابلات مكسرني
والحواجب اللي بدّا بسي تبي ... والحواجب نون كخط القلام
والحواجب مثل نون مخطّطا ... مليح ما ناويس ترسل مضبطا
قد ما تكون الأمور محربطا ... كل مشكل حلّ لو طيّت قرام
كل مشكل مع جناب اكبر وزير ... ما بقى « للوفد » من امر عسير

حلّ مشكالها وآمر : دقّ النفير نالت « الوحده » دروزه والشوام
نالت « الوحده » كرامة عبنها ، تأثّرت باريس شافت زينها
بين شحرها وبين جبينها ألف لكس اللّي مشمّع بالنام
الف لكس من الوجابن والمدود كل واحد ، مع ليمو ، في ورود !
والسوالف ، والكذيلا ، والجمود عفّ عالمتين كريش النعام !

إنّ غرام سليمان عبدي ينتهي دائماً بارتفاع الشاعر عن عالم الأرضيّات ، وتركه العالم الصغير الى عالم النجوم والخلد ، يتمشّى هناك مستصغراً كلّ شيء غير حبّه ولذّته الفائقة الوصف . وهو لا يرى في الحب شيئاً يجب أن يُستر . فالحب مباح وعلى المحبّين ألّا يخجلوا به ابداً . . . يجب أن « يخلعوا عذارهم » في الحب على مذهب ابن الفارض ! وسليمان يُوفّق دائماً الى التعابير والصور والألوان والانغام الملائمة لوصف هذا الجوّ الملائكي الخلّاب . ونحن نورد فيما يلي مثالاً من شعره الغزليّ يدلّ على مذهبه الخاص المبتكر فيه :

الله على عُذّالنا ! ما يسمحوش إلي ساعه مع حبيبي خوش بوش
حتى مو اصعد على سابع سما ودوس المسالك بطريقي والعروش
حتى مو اصعد على سابع سما وشوف كل الكون تحتي كسكما
ما يصير عليي رقيب ولا حما ويكون نحسي بالسما بمسل عشوش !
بكل نجمي عشّ نسل للغرام ، اهل السما ما في عليهم شي حرام
وتضلّل بضل البنفسج والخزام ، والورد والريحان حتى المردكوش
والورد والريحان فوق اللي سرى كل شي جرى : عندي يصير مسخرا
ونشوف ملايكة السما حب اشكرا ، ما تستحي منهم ، وهم ما يألوش
ما تستحي ، من ايش بدنا نستحي ! أنا وحبيبي عن العواذل نتنحي
بين السما والارض صرت مشوشحي بجوّ خالي ما في كلّ روش
بجوّ خالي من عواذلنا ، فسيح ، نسمع ديوك العرش حولنا تصيح
ونشوف سيّدنا محمد ، والمسيح ، يباركو ، يباركو ، ما يزعلوش
يباركوا ، يباركوا ، ما يزعلوا ، حيث في هالدني : حلو حاب حلو
كل الملاح المصنعين يقبلوا غير الذي ما ينهروا ما يقبلوش ! الخ . .

ولا يقتصر تفاؤله وفرحه على شعره الغزلي بل يمازجان كل شعره على الاطلاق . فانت تلمسها في وصفه جبل حوران ، وتلمسها خاصة باوزان شعره وكلامه ونوع تعابيره وقوافيه :

الله يعزّك يا جبل حوراني ! يا منبت الأبطال والفرساني

كل الشجاعه والكرم جبلك حُبيّت ، يا شامة عرب بناني
حُبيّت ، يا عالي الذرى ، يا شامه يا سُور اوطان المنا والشامه
كل الملق تتقلّدك بالشّامه ، وانت الذهب مسبوك بالميزاني !
انت الذهب ، يا مغلي ، متقودي والّلي تقلّد سطوتك متقودي
ياما هدوا ليك العرب من قودي تا يحشموا بعالي الذرى الفرقاني
تا يحتسوا ، يا معتلي ، بركانك يا ويل خدّك ، لو شعل بُركانك
ياما تأمّن محتسب بركانك لو كان عاداه الأنس والجاني
لو كان عاداه عدوّه عيّاً ويشوف باسك في كلامو عيّاً
انت المغذّى : بالشرف مُوعيّاً مالك على وجه البسيطه ثاني
مالك على وجه البسيطه نَدّي ، ومن سمتك فاح العطر والنّدّي
ان رضيت ، يسف المَطَر والندّي ، ويوم ترعل تشعل النيراني
لو ان ترعل عالبحر ينوري ، حتى النجم لغارتك ينوري
تعرف مواضيك الترك ينوري شهدون باسك ، والدما غدراني
شافوا مواضيك العرر ، وحجولي ، حامي ذراه سوارها وحجولي
ما كان صيدك بالزمان حجولي ، غير الذين يُلبّسوا التيجاني
غير العراضي ومرتبك منصوره في غيرك بلاد الشرق مَنْ صوره ؟
ربّك ودع فيك العلى مِنْ سوره فتح المبين بآية الفرقاني
فتحاً على كل الطوايف عالي ، برجك منيع ودوم ذلّ العالي
بين العرب بتكون عال العالي ، وجدّك ترى ماه السما النّعماني
ماه السّما لا يا مُعلّى ، جدّك كان القديم ، واليوم افضل جدّك
غير المعالي والمفاخر جدّك حتى غدا في قتّك ابراني !

وشعر سليمان كثير الشيوع سريع الانتشار ، لأنه يهزّ اوتارًا في قلب الجبلي لا تقلّ حساسية عن اوتار الشجاعة والرجولة ألا وهي اوتار الحب والمَرَح . وقد فتح في الشعر الجبلي باباً جديدًا — بل لعلّه جديد في الشعر العربي ايضاً — الا وهو باب « الشعر التبغي » .

فهو يجيد وصف مضارّ التبغ كما يجيد وصف منافعه ، وهو يدخّن بكثرة مع ذلك . ولا يقتصر في ذكر منافع التدخين المادّية — وهي قليلة — بل يصف خاصّةً مفعوله المعنوي الالهامي . وقد اثار وصفه التبغ ودعوته الى التدخين حرباً شعريّة سنوردها بجملتها لما هي عليه من الطرافة والابتكار ، وللدلالة على ان الجبل الشاعر لم يُغفل شعراؤه عن اي موضوع ، ولم يقصروا

في اي نوع من انواع الشعر ، بل سبقوا في الكثير منها كثيراً من شعراء الفصحى . كان سليمان عبدي الاطرش يُدَخِّن ، ثم اراد ان يمتنع عن التدخين فوصف مضاره بالقصيدة التالية :

اوّل عذابك حرقة النار لابدك ، وتاني عذابك تخشتو مع وريدك
وثالث عذابك بنقصك ما يزيدك ، ورابع عذابك بالعمر ما يفيدك
وخامس عذابك خم حلقك والضراس ، وسادس عذابك يعلمك باش قَحَّاح

التن ، يا ممي الغاب ، ما بسلّيك يحرق عظامك ، والدخاخين تسيك
ويمرّ كيدك بالصدا والتواعيك ، ويدعي بزلاعيك مثل صيحة الديك
خمين قرشاي ، وثمانين كنّاس ، ما نظفوا صدرك من بحوح وكلاح

عاده قبيحه تدعي الرّجل تملوك ، صفرا سنونه ، محبث النم وحنوك
كالمشحره اللي تصبغ السقف وفكوك تعطل احواله وصوته يصير مذكوك
وبالليل تسمع لشخيره والانفاس يغلي ولا يحكي مثل صوت ضبّاح

الياحكي بالناس ، بان الحكي جرش ولشرا غلاماً صار صوته كما الهرش
هذا الذي بعادتو يشبه الوحش لو كان يملك من جميع الرزق قرش
به اشترى دخان ، واصبح بالفلاس ، وخلّا عيالو بجوعهم لعلم ونواح

انا انصحك ، يا صاحبي ، بطّل التبغ ، وارتاح من صبغة سنونك مع الصبغ
وريّح عبابك من حريقات مع دبغ ، وريّح كفوفك من تلا اللّف والمزغ
وكافيك تُرهق روح ربعك والجلاس ، طاوع كلامي ، واترك التبغ ، وارتاح .

ثم كان ان ندم الشاعر على تركه التبغ ، وحنّ الى التدخين ، فاراد ان يبرّر هذا الحنين وهذه الرجعة بقوله :

قلبي تمنى اشتري اليوم باكيت ، تركي أهالي والسكاير مذهّبْ
الياً فتحتَه ، وريحة العطر شبّيت ، يطرب دليلك قبل ما تصير تشرّبْ
طول السكاره ، وولّعه بعود كبريت ، وان ولّعت من قبل ماتذيبْ تطربْ
فحّت بريحه فايحه عطّر البيت ، والّا كما عودٍ من الندّ واطيب
لوان حبيبك عقب الفراق لاقيت بوس السيكاره مثل بوسه واطيب !
لوان سيكاره بداخل القبر حطّيت يضحي القبر يشبه لقصر مرتّب
شربه لذيذ يشتّت الهم تشتيت كنّك مريض : هذا دواك المجرّب
والما شرب دخّان عدّه كما الميت واللي شرب : لو كان شايب رجع شبّ
قُل للذي بَطّل يدخن سيكاريت ضيّعت لذّاتك بالعمر ؛ تضربْ !

ولكن كلام الشعراء لا يمرّ بلا تعليق . فقصيدة الشاعر الاولى ما تزال حاضرة في الأذهان، وقد اطلع عليها كل شاعر، فكيف يرضون بان يروا الفرصة تسنح دون ان ينتهزوها ويهيبوا على الشاعر تغيير رأيه بهذه السهولة ؟ لا . لن يتركوه ، ها هو صياح الاطرش ، ابن عمّ الشاعر ، يجيبه بقوله :

يالي غنى بآخر السر باكيت ... تركي اهالي والكبار مذهّب
يا صاحبي ، عذاب نفسك غنّيت ... من غير شربه كود نفسك تعذّب
حتى جليسك ما طرب ، يوم غنّيت ... لو كان دليله حين يلقاك يطرب
الثني يكت ناصح الجسم تبكيت ، ... ينحل عظامه ، والمعاليق تخرب
يا هيه، وان كنك عشرمه تشانيت ... لا تك عقلك من دماغك تذهب
بآخر زمانك كود تغدي كما البيت ... تسل ، وبارًا بحوالك تلهّب
ان طحت شوري قول : «عنّه استتبت» ... اترك حباله ولا بحبّه تتعصّب
اصحك حيث اني بشربه تعانيت ... شربه مضرّ ، ولا تجرّب مجرّب

وينبري له هلال عز الدين فيجيبه ايضاً :

يا هب ، يامن تشتهي شرب باكيت ... دخّان يفري النفس لثر مذهّب
عضره سفطري سمّ بحشاك غنّيت، ... توحس آثاره بعد ما صير تشرب
تشرب ابا وشمّها بعود كبريت، ... وحراق كبدك من لظى النار اقرب
عضره وريحه وبدّها داخل البيت، ... لثّه كما حُصن البطيخ يخرّب
سمّ ولسمّ وطعها ان كان حسّيت ... لذّه عراقيها كما السمّ واعطب
وان سكاره شف الفاه ذبّيته ... فحّت انفاسك ريحة القبر، واكرب
شربه وقرّت بدعي الحيّ كاليت ... داء يفتّ الكبد كم عقرب
اقبح طريقه للجسم كان سوّيت، ... مدرك وعاء دخّان منشان تطرب !
صبه على قلبك ، كن الفير حطّيت، ... يبقى سناها وسط الابخاد تجرب
قحّه وبحّه وتالي الليل عوّيت ، ... خسران عمرك دون ما شي. تكسب
وان نسك عن هوى التتن غنّيت، ... ما كان ظهرك آخر السر احدب
آسير نسك لأحقر الناس دنّيت ... شحّاذ كنّه ماكلاً ازاد يكلّب.
قل لّذي ينقاد للتتن : ولّيت ! ... أدبّر زمانك ، وانت مملوك ؟ تضرب !
لو ان تقابل حاكم العدل يا ليت ! ... حكم على من يشرب التبغ : اجذب.

ولكن سليمان لا ينكسر وعنده من اساليب الشعر ما يؤمّن له الغلبة على اخصامه . ها هو يجيب على الاجوبة ويزداد بالتبغ شغفاً وامياً يوصفهم السمال (القحّة) وما اليه عرض الحائط قائلاً : (يخاطب هلال عز الدين)

يا شيخ انو متعب ، ظلت وتعذّبت ورحتو تسبّوا الملكم حتّ ينسبّ
لايا عجب كيف ان تجرّأت ورضيت تدوس المَبيق ، وتخلي المسك ينكبّ
لازم بانك ، يا فتى ، تكون داريت ناسًا من الجنسين ، يا شيخ ، تشرب
جنس الاول طبّب الغال والصيت اهل الرياسه ، وللسياسات تُنسب
« كون »(١ الذكي لو لا يدخن سيكاريت ، ما كان لامراض الجبل ، يوم ، طبّب
وكثار غيرُه يا فتى ، ان كان عدّيت ، كرام اللحي ومع كل سيف مشطّب
والجنس الاخر يا فتى الخود آميت عيون المَهَا هَلي كما الورد واطيب
حطّوا الزمرّد عالصدور ويواقيت وخود تفاّح الصدر نَوْ قَبْقَب
لو يَشتروها عالملاسم وراعيت هَلكّ الصباح اللي الكارات تنصب
حوري عليك تكون مغرم ، وجنّيت يوم تشوف النور والنار تلهب
وما عرفت حَدّه من سَنّا النار ، يا ليت ، أيّا لميع بين الاثنين اعذب
ما عجل كبرت وعادك الدهر ونسيت هَلكّ الليالي اللي قضّيته وانت شبّ
ياما بدهبها وشربها فرحت وغوبت ! وياما جلَبْهَا اللاسة كنت تطرب !
ياما سكرت او عادك الفكر وصحيت والليل داجي وريح غربي عَذي هَبّ !
ونجوم في كبد السما ان كان كدّيت تلمع كما نور السكاره وتشهب
اشرب وافتخ ، يا فتى ، عالعناريت وَلّت ، ومع كل الشياطين تذهب
اكيف اصبح باليسن ، وانت اسيت بقطب الشمالي ملزّع الفكر والقلب
يا شيخ ، خذلك صومعه ودشّر البيت ولا عدت لحيّ القناديل تقرب
وادعي لنا ، يا شيخ ، عالركن والنيت ربّك كريم يسامح العبد لا ذنب !

فاجابه هلال عزّ الدين بقصيدة اشار فيها الى نهي سليمان الاطرش عن التبغ ومناقضته نفسه قائلًا :

يا بو حسن ، ما قطّ عمري تعذّيت وسبّيت من هو ما به شيء ينسبّ
ما هو عجب لو اتي اليوم جرّيت سيفًا على جيش الظلم حتى ينصبّ
اما العجب تشبيهكم مسك باليت للتبغ ، حين تشمّه الناس ينكبّ
اوجست ، انا المظلوم وان كان واريت شبًّا على الجنبين نارًا تلهّب
ان كنت مغرم بالطف الجنس وغويت ما لاق لي تلبيس ضيه جلد ضبّ
« كون » الحكيم اللي يدخن سيكاريت خالف نظام الطب من ذاك اغرب
« لقمان » مع ما بينهم من تفاويت ما قال في علمه عن التبغ يُشرَب
ست السما بلفيس وان كان عنّيت ! ام المسيح ، وعايشه ام يُعرَب

(١ هو طبيب جرّاح كان رئيس الصحة والاسعاف العام بالجبل مدة طويلة واشتهر بمهارته الجراحية شهرة فائقة ، وكانت السيكارة لا تفارق شفتيه .

ما شرعوا للجنس، وان كان راعيت ... مكتابهم ان الأنامل تخضّبْ
بصبغةٍ تشداك دم المغاريت ... وكبده على نار المجامر يعذّب
كم غيدةٍ قالت برايك تحدّيت ... عيدٍ طعم سلسالهن شهد واعذب
الكيف ما هو شرب دخّان تعنيت ... وشي على عكس الجسم دوم تنلب
إن كنت للجنس بالقلب ودّيت ... انصح لهم عن صالح الجسم يخرب
ما انتَ مَلّي اول الناس شنّيت ... غاره على التباك بعدْ احدب؟
بصفحة التاريخ سجّلت ، يا ليت ... ما ناصرك مَن كان للحقّ اقرب
مع اوليا الشيطان حقًّا تباريت ، ... والنصر كان بجانبك وانت تطرب
ما راع من قولك عن البال، وسيت ... بيت من الابيات شعرك وانت شبْ
مالي اراك اليوم عن ذاك شنّيت ، ... وبلحظة غرام التتن انت تتذبْ
ما عدت تذكر ما ذكرته لنا ميت؟ ... وتنصح لنا بصومعه نروح نكبْ
وندعي لكم مداخل الركن والبيت ... ان الإله يتوق نفسك الى الطب
وقلبك يوالي من له الحيّ والميت ... خالق جميع الناس عالكون هو ربْ

وقد اطّلع السيد سلامه كرباج على هذه المحاورة الشعرية اللطيفة فانتصر لسليمان الاطرش وراح يكتب الى هلال عز الدين قائلًا :

البارحه ، ما طبّق الحجر بناس ... حيثه ذهبن ويودع القلب ما دلّ
يا هلال ، ثاري فكركم خربط الراس ... قدرك رفيعًا والمنا يلك ما زلّ
يا صاحبي ، اودعت بالقلب هوجاس ... من قولتك ان الشيخ آخرو يميلّ
لا صار ما تطرب الى التتن : نحناس ... ولا ينجلي عنّك ترى همّ مع غلّ
افسدت اللّي خالطن بكل متراس ... عشرين عامًا ، يا بو متعب، ولا كلّ
تطرب اليا شربت التتن حدّ يحاس ... بمرنوقة بعد الغلي ماءها زلّ
ثاري التتن، ياشيخ، تطرب له الناس ، ... عندك سكاير معرمه وزاد في حلّ
إن طمتني، يا هلال، لو شربت لاباس، ... لو تمضغ الدخّان عنك التنا قلّ
لا تمتني ، يا صاحبي ، بايض الكاس ... بساعةٍ يدعي ، ترى ، العقل يختل
هذا النبي ينهاه من دور عبّاس ، ... إن اتّبعته دعيت للتتن محتل
دخّن الياصرت بتنا ويك وسواس ... يفرج لك الله بساعةٍ ما جا ذلّ
الياصرت ترسم بالقلم فوق قرطاس ... دخّن سيكاره تشوف للقاف ينهلّ
ولا هو من اللّي يودعك فوق متباس[1] ... الياشربته للملا ما تذمّل!
يا هلال ، لاقيت التتن هو عبّاس ، ... ولا صرت وحدك هو ترى الكلّ بالكلّ
واللي رميته ما يطابق بالمراس ... حذراك عنه صوبي ما يبطل
مافي من اللي يشرب التتن بخلاس ... ولافي من اللي عالدخاخين ينصلّ.

---

١) المتر .

فيجيبه هـلال بقصيدة اخيرة ينوّه فيها بسيطرة عقله على عاطفته وعدم اكتراثه لأقوال المتهمين والمتهجمين ويختتمها بهـذه الحكمة التسليمية حسماً للنزاع :

لمّاد مآتي للمخالين سوّاس ربّك حسيب الناس والكلّ بالكلّ

وهكذا تنتهي هذه المحاورة الجميلة سنة ١٩٤٠، اي في اثناء هذه الحرب الضّاعقة . ممّا يدلّ على ان هذه الحرب لم تؤثّر في سير الحركة الأدبية الشعرية عندنا ، إلّا عند شعراء السياسة الذين تركوا الشعر الى حين ، وراحوا يبحثون عن طرق التقدم والثراء شأنهم في ذلك شأن الانتهازيين في الدنيا .

التقليد والتكلّف في شعرنا الحديث

كنت ، في احد فصول هذا البحث ، قد اشرت الى ان شعرنا الحديث قد دخله شيء كثير من التقليد والتكلّف . ذلك ان شعراءنا الأحياء ، والمجاهدين الذين تزحوا الى الصحراء بنوع خاص ، صاروا ينظمون الشعر بمناسبة وبغير مناسبة . فيأتي شعرهم خالياً من أيّة نفحة شعريّة صادقة ينحصر في نظم ركيك ، سخيف ، فاتر ، تافه .

ولو انه خضع لمرّ الزمن وصقله لمـا وصل الينا منه إلّا جزء يسير جدًّا . واكثر هذا الشعر الانحطاطي رسائل متبادلة بين من هم شعراء ومن هم غير شعراء : فيأتي وصف الركاب والرسل والرسائل تقليديًّا بحتاً ، هو صورة مشوّهة لما يقابله من شعرنا القديم والمتوسّط . فالجناسات تتكرّر ، من غير ذوق ، والتعابير تتقمّر من غير حاجة ، والافكار تغدو صبيانية ساذجة . ونحن اذا استثنينا بعض القصائد المنظومة بغير مواضيع الغزل والمدح لا نجد شعرًا يستحقّ البقاء في شعر فترة الاضطراب والانتقال التي عقبت الثورة . والاستثناء الذي ذكرناه يشتمل على كثير من القصائد ، والحمد لله . فلدينا قصيدة نظمها عدة شعراء من آل الاطرش دفعة واحدة وهم في النبك : فنظم كل واحدٍ منهم مقطعاً منها بمناسبة يوم ريح تلته ليلة كلها دخان وضيق ومطلعها :

ضاري عجاج وزاد بالليل دخان وعيني على الخالين ترشح دماعه

ـــ وهناك حتى في عالم الجناسات بعض ومضات من الشعر في شعر نجم العبّاس ، وسليم الدبيسي ، وعلي عبيد ، وزيد الاطرش ، وصالح عمار ، وهلال عز الدين وغيرهم ؛ وكثيرٌ من الشعر في شعر البدو الجليين واخص منهم بالذكر : سردي ابو سَتاحه ، وسالم الخضير من قبيلة المساعيد ، وابو حرب النردي من قبيلة السردية ، وعكيب العمّار من قبيلة الحسَن ، وصبيح السرّاح من قبيلة السرعان .

الندب والنواح النسائيان

قلت ان البكاء على الميت يُترك امره عندنا للنساء . فهؤلاء يتغنّينَ بنوعين من الشعر الرثائي هما : « الندب » و« النواح » .

والندب والنواح يختلفان في الوزن واللحن فقط : فالندب يكون على الحان متعدّدة كالشعر اكثرها على وزن :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

غير ان التغني بالندب تنوّع النساء الحانه تنويعاً كثيرًا يقل فيه الذوق ويكثر التقليد .

والنواح يكون على ما يشبه العتابا مع اضافة البكاء الضروري عند تلحينه والتغنّي به . وهذا الشعر كله لا جمال ولا طلاوة فيه إذا انت قرأته . وإن يكن لا يخلو من بعض الجمال الموسيقي اذا انت سمعته . وعلى ذكر العتابا نقول ان كثيرين من شعراء الجبل اجادوها في معرض البديهة اي بوصف حالة عارضة . ولشبلي الاطرش ، واولاد الفهد ، واختهم ، فيها جولات موفقة . ونحن نورد بيتاً لعلي نفّاع يدلّ على قوّة البديهة هذه .

وهو تاجرٌ شاب دخلت دكانه فتاة لتشتري فنادته بقولها « يا عم » فقال :

عيدك شوف ، يا ربّي عملهن بعزّ صباي نادوني : عم الهن
بجاه المصطفى ترسل عمى الهن لما يحقّروا المشيب من الشباب !

اما الآن وقد عرضنا لأهم نواحي الشعر الجبلي العامّي ، ورأينا ما فيه من صفات ، فلا بُدَّ لنا من كلمة نقولها في الشعر الفصيح والنثر الفنّي وإن يكونا لا يزالان في المهد .

القسم الخامس

الشعر الفصيح والنثر الفني في الجبل

منذ عشر سنوات فقط ، بدأنا نرى في الجبل من حين الى حين مقالة صحفيّة منثورة على شيء من الجمال والفنّ قليل . هي مقالات صحفية سياسية على الغالب ، مقالات مناسبات لا تكوّن ادباً بالمعنى الصحيح . قد يكون هناك مقالات مخطوطة كثيرة ، ولكن هذه المقالات لا تدخل ميدان البحث والنقد إلا متى نشرت . ولعلّي لا اغالي اذا نفيت وجود مثل هذه المقالات بالاطلاق .

فشبابنا يكتفي من الثقافة بجمع المعلومات من غير هضم ، ولا ينهي دروسه الثانوية او التكميلية على الغالب حتى يندفع وراء الكسب ويذري الكتب والكتابة . والنزعة السياسيّة التكسّبيّة تسيطر على فكر شبابنا سيطرةً مخيفة . لن تكون لنا مؤلفات ادبية حتى ولا مقالات ذات قيمة إلّا بعد زمن طويل . اسجّل هذا آسفاً وانتقل الى تسجيل مثله تقريباً عن الشعر الفصيح :

سلامه عبيد

عندنا شاعر واحد ، اتّلع على سير الحركة الشعرية الحديثة في لبنان فسورية ، ونظم بضع قصائد تدلّ على شاعريّة صحيحة ، وهذا الشاعر هو الاستاذ سلامه عبيد ابن الشاعر الزجلي علي عبيد . ولا تعثر بقيمة شعره قلّته . فهو لا يأتينا بغير الجيّد منه . لأنه لا ينظم الشعر إلّا للشعر . وانت لو رأيته لَمَا شككت بانه شاعر لما هو فيه من التحوّل ورخامة الصوت . وهو لم يترك المدرسة إلّا من سنتين منح ذاته بعدهما للتعليم ، وهو من العنصر الطيّب النادر في معارف الجبل . كان في مدارس دمشق اوّلاً ثم انتقل الى الجامعة الوطنيّة في عاليه فاخذ يحنّ الى بردى ويعزي نفسه بجمال لبنان الساحر فقال بعنوان : « ليتني انسى ! »

« ليتني انسى ! ولكن كيف لا اذكر الشام وسحر الربوتين ؟
واحاديث اضوى ربّةً ونثني بردى والضفتين ؟

فإذا ما الليل أرخى ستره وتلاشى كلُّ صوتٍ واندثر
وغادى البدرُ في حوف السَّما ، ورنا النجم بخوفٍ وحذر
واذا ما النهر ما بين الحصى ردَّد الآهات ، والناب اقشعر
ونشت نشوةٌ محمومةٌ في عروق الليل ، واحلولى السَّمر
اذكر الماضي وابكي بردى ، وشذا الوادي ، واحلام السَّحر
وزمانًا ، كأسا الليل هنا ، هيَّجت ذكراه دمعي فانحدر

. . .

قيل في العود عزاءٌ يُرتجى فليرنَّم ، ولتشنَّف سمعي
ولتشعَّ انة العنقود ، في حلكِ الليل ، كذوب الادمع
علَّها تبث في جفني الكرى مات الشهدُ والنا أهجع
فتلظَّى القلب ، لمَّا لثمت انة الكرم برفقٍ أضلعي
لعن العود وأبدى عجزه ، وانثنى يبكي على الماضي معي
عذَّبتني ذكرياتٌ حلوةٌ واستبدَّت بفؤادي الموجع

. . .

يا ربى لبنان ، رفقًا وارحمي وابعثي في خافقي نور الهدى
منذ ما ودَّعتُ عهدًا طيِّبًا لم يزل في خاطري منه صدى
عصف البين باحلامي ، فلا بسمةٌ رفَّت ولا عودٌ شدا
جئت ، يا لبنان ، انسى ما مضى فإذا بي قد نسيت صدا
وإذا بي زهرة مهجورةٌ لم تزل تصغو الى ذوب الندى
إنْ تكن تنسي روابي كوثرٍ كيف تنسيني روابي بردى ؟

. . .

كفكف الدمع ، فقد هيَّجت في هدأة الليل النعوش الحسرات
وابتسمْ للزهر ، واسرحْ في الربى بين الحان المياه الشاديات
وابعث الآلام شعرًا مُلهمًا في الليالي الصافيات الساحرات
ودَعِ الماضي وذكراه ، وكن بسمةً ربَّا على ثغر الحياة
كيف تبكي ، والمنى مسؤلةٌ ، رفرفت فوق الروابي الزاهرات
انت في لبنان ، في مهد الهنا فليمُتِ الحزنُ وذرف العبرات

. . .

إن تكن ودَّعت وادي بردى واحاديث الهوى والصبوات
فهنا لبنان في روعته حسنُ الدنيا ، وسحرُ الكائنات.

ثم تراه يدعو بسمة الأمل الى العودة بقصيدة رائعة عنوانها : « عودي ! » يقول فيها :

عودي مع الأطيار ، عودي ، يا بسمة الأمل الشرود
كادت تذوب حشاشتي ، وتقطعت اوتار عودي

. . .

نثر الشباب على جبين الأرض احلاماً وسحرا
فتشاءبت ، وتمايلت ، واستيقظت تختالُ كبرا
لبست لجين البدر واتخذت من الأزهار عطرا
فترنمت زُمر الطيور ورفرفت في الجوّ ، تترى
وتراقصت بين الربى وعلى غصون الدوح ، سكرى
عادت تذيب الحبّ والإلهام في الأجواء شعرا
عودي مع الأطيار عودي !

مات الشتاء ، وعادت الأنهار تجري في الربيع
رقراقةً تنساب في الوادي وفي السهل الوسيع
فيثارةً تجري على الحصا اغنى الفطيع
والسهبُ راحت تستجمُّ بمائها العذب السريع
حاكت لأعطاف الحصى ثوباً من الخزّ البديع
فتنفست روح الشبيبة ، بعد ويلات الصقيع
عودي مع الانهار عودي !

رشفت شفاه الناب من ثغر الصباح لماهُ رشفا
فترنحت نشوى ، وداعبها النسيم فكان عزفا
وتلألأ الطلُّ المذاب على كؤوس الزهر صرفا
والنرجس الوسنان ، بين شقائق النعمان ، أغفى
فتململ الوردُ الخجولُ وانعم الأجواء عَرفا
عادت زهور الروض فازدادت بها الارجاء لطفا
عودي مع الأزهار عودي !

أوَ تذكرين الناب في تلك الليالي الماديات
والبدرَ يبدو في السما بين النجوم السافرات
وشذا المزارع كلّما هبّت عليه الساريات
وصدى لُحُونِ العندليب على الغصون الباسقات
وتمايل النوّار في ذوب المياه الشاديات
عادت فليم لا ترجعين ، وانت اكبر الحياة !
عاد الربيع ، ولم تعودي ، يا بسمةَ الأملِ الشرود
كادت تذوب حشاشتي وتقطّعت اوتارُ عودي

وليس سلامه عبيد اقلّ بشاعرية عندما يخاطب الوان العلم السوري الاربعة. فمثلاً يقوله للون الابيض :

انت فينا نغمةٌ من فخارٍ يوم رفرفتَ في يمين أبيّه
تحمل الجحفل المضمّ الى النصر وللسيف غضبةٌ مضريّه
فعلى الافق من حواشيك نورٌ وعلى الارض حلّةٌ سندسيّه
فإذا الشرق عزمةٌ ومضاءٌ وإذا الغرب حتّةٌ عربيّه
ذكر القوم إن تناسوا زماناً حملوا فيه مشعل البطوليّه
وامتحن العزم في الشباب فمارٌ أن يلينوا وارضهم سوريّه

ـــ وللّون الاسود :

أيها الخفّاق عزّاً انما لم تزل تحنو الى المجد السعيد
والذي يحمل بمراس الهدى زمناً بأبى محاراة العبيد

ـــ وللّون الاحمر راية الثورة العربية الكبرى :

رايةَ الاحرار إنّا انّهُ لا تطيق الذلّ يسري في حماها
في ظلام اللحد تنفو حُرّةً وتعاف الموت عزّاً مقلتاها

ـــ وللّون الأخضر راية الأمل :

من فنون الربيع ألبستَ بُردا عاطرَ النشر مستحياً مقدّى
املٌ ينعش النفوس ويذكي في الحنايا عزماً حياً ووجدا
كلُّ ما في الشباب من وثبة الفكر وحبّ التجديد توباً وعهدا
ماثلٌ فيك : فاخلع الثائم البالي وبدّل بالشوك فلّا ووردا
فحرامٌ ان يغمر الجهلُ ارضاً عرفتها العلوم إنّاً ومهدا
واطلب العيش في ظلال المواضي فالمواضي ، من اجود القول ، اجدى
والقويُّ القويُّ يسبح في الجوّ طليقاً مستنسراً مستبدّا
والذي يعشق الحياةَ أنوفاً في طريق ، وَعْرِ المسالك ، جدّا

هذا بعض شعر سلامه عبيد الشاب. ولي فيه املٌ لا يقل عن الأمل الذي يراه في الأخضر من العلم السوري. ومن عرف كيف يتغذّى بقوّة الجيل وطهره وبعده عن ترّهات الحياة عرف ولا شك كيف يجود بالشعر الصافي يزخر قوّةً واملاً وشباباً .

علي سيف الدين القنطار

وعندنا شاعرٌ مُخضرم هو صديقي علي سيف الدين القنطار ، الذي كان له الفضل في كثير من المعلومات التي جمعتها عن شعرنا العامي ، وشعرائنا الاقدمين والمعاصرين . وهو مخضرم لأنّه ينظم الشعر الزجلي والشعر الفصيح في آنٍ واحد . وهو يميل الى الشعر الحكمي فيصف في قصيدة له زجليّة انواع الرجال وينعى عليهم عـدم وفائهم وتسابقهم الى المنافع الخاصّة ، تاركين المنافع العامّة مهملة ناقة ؛ مع شعرٍ كثير سمعته ينشدني اياه فتبيّنت صفاته العامّة وهي : قوّة الرجولة ، والجوّ العبوس ، والتشاؤم المطلق . وهو في شعره الفصيح ينظم على طريقة الأقدمين من حيث جودة اللغة وعدم التجديد في الأوزان وطرق التعبير — ولكنه يطرق مواضيع جديدة كالحرب الحديثة ومطامع قادة الشعوب وما الى ذلك . وهو على كلّ حال ، لا يزال شابًّا . وقد يطلّ علينا يوماً بديوان له جامع لشعره العامي والفصيح معاً — فالشعر شعر لا فرق بين الفصيح منه والعامي والمنظوم منه والمنثور . وآتي موردٌ من شعره مثالين احدهما باللغة العامية والثاني باللغة الفصحى : وأثر الفصحى في شعره العامي ظاهر بعض الظهور :

افكر بحال الناس من كل الاوجاه ... وارعى جم من دون سابق وجذاب
اشوفهم بقالهم يشبهوا ذيابه ... منخره جدوم وليوس وزرار :
هذا لاجل الناي فايت رديه ... وهذاك ، عند القصد ، سابق صديقه
الاول مطعون شرق بريقه ... واخوه طاعن لاجل غايات واسرار
والبعض باقي بلون صاحب وحبيب ... لكن عدو ومختفي تحت حلباب
بتطيك هرجًا مثل سكر وحلاب ... واحال حبه لمسها بجلب اخطار

. . .

يا ويل ناس تمامها الغدر والبوق ... وتعاونوا عامرتة الصدق وحقوق
صار البطل يمينهم حلّ معشوق ... مثنا بينه ، وماخذين الكذب كار
الدين ماد وما بقالو سرات ، ... والكفر زاد وصار يرحد مع الذات
يا طفتي نافق صعا عند هبوب ... طيرًا جدي بعد ما تنفر وطار

. . .

اللي ترعم صار بالمال مرزء ... مرّه بجيبه برفق مرات بخداع
ماضي على الغروات من قبل ما ينبع ... وعيب على اللي بالرخص برفع اسعار

واضحى الفقير بحالة الذل مسام من حاضر في الشر والشر من عام
ما لو خوباً بالملا راعي ذمام ولا لو صديقاً يحفظ العهد وحوار

. . .

واللي يريد الكيف يحذر من الناس ، يصدف ويبعد عن طنابير واجران
باخذ من اللي حنة الصدق لبأس يسام من كباة المذلات وعثار
وان ما لقى خلاً نصوحاً يخله من عد ما يعرف مناحيه كلّه
حيث الكريم الحر ما يطيق ذله ولا يرتضي بمرفقة بجلب العار

وله في الشعر الفصيح من قصيدة :

وليس وقوفي عن زهوق ، وانما وقفتُ وقوف الناقد المتأمل
فما راعني الا نخنتْ فتية ، وازباء سوها سيل التقدم
توغل فيها ما استطاع مفاخراً فتانا ، واضحى تابعاً كلّ محرم
يراقص ربات التهتك عارياً فتحذره كالمنطيس المتوّم
وتسلبُ عقلاً ومالاً ومنصباً فيصبحُ منها معدماً أيّ معدم

. . .

يقولون لي ان التمدن واجبٌ فيا عليه نعتمد ، نتقدم !
وهيا انتظم ، ان شئت ، بين صفوفنا فنرفيك اسباب الملاء بسلم
وسر نحو باحاتِ المغاني مسلما ففيها نجد نهج الرقي الميسم
هناك نجد سر الحياة مجسماً ، وناميك من سر الحياة المجسم !
اوانس تلقاها تحادى جميلة تميس باثواب الغوى والتنعم
تميل على اهل الغرام بجيدها فتنثرل منهم بين غرٍ ومعمم
هناك ارقص في منهج الرقص ترتقي الثريا فلا تسمو اذا لم تتمم

. . .

فيا شبنا الراقي كفاك تقدما ! وقدك فقد افرطتَ في ذا التقدم !
فهلا تقدمنا بغير خلاعةٍ وهلا اكتسبنا غيرَ وزرٍ وماثم !
يقولون هذا العصر عصرُ تمدنٍ وعلمٍ واداب ونجحٍ عمم
فان كان بالعلم الخلاعةُ والغوى فلا بارك الرحمنُ في ذا التعلم !
وان كان باهل الاكيد وقينا ، فيا جهلُ عسكر في الربوع وخيم !

الخاتمة

مستقبل الادب في الجبل

ليتني استطيع ان انهي كلامي عند هذا الحد فلا اعرض لمستقبل الأدب عندنا بقليل ولا بكثير . ذلك اني لا اعرف الخداع ولا احبُّ التمويه . اني لا اجد في الحاضر الذي امامي ما ينبئ بنهضة ادبية قريبة في الجبل . أو يكون اشتغالي وحدي بالأدب دليلًا على نهضة ادبيَّة ؟ أو يكون اقبال الناس على مطالعة الصحف اليومية دليلًا على نهضةٍ ادبيَّة ؟ كلَّا لا هذا ولا ذاك . فاليد الواحدة لا تصفق والكاتب الواحد يستطيع ان يهيئ جوًّا ادبيًّا للمستقبل البعيد ولكنَّه لا يستطيع ان يخلق حياة ادبية شاملة في بلدٍ ما . فالإقبال على مطالعة الكتب الأدبية عندنا يكاد يكون منعدمًا ، وإن هو وُجد فيكون على الاقاصيص الغرامية التافهة ولا يتعدَّاها إلَّا الى مؤلَّفات المنفلوطي وجرجي زيدان وما علمت ان هذه بامكانها ان تخلق جيلًا من الادباء . واذا ذكرت الى جانب ذلك عدم اكتراث الشباب عندنا ــ ولا ثقافة في الشباب ــ للحركة الأدبية في البلاد العربية ، وعدم اهتمامهم من الحياة إلَّا بناحيتها المادِّية الصرفة ، وتكالبهم على الوظائف الرسمية التي تبعدهم عن جهاد الحياة وعصاميتها ــ وجهاد الحياة وعصاميتها شرطان اساسيَّان في تكوين روح الخلق والابداع في الأدباء ــ إذا ذكرت هــذا اصبح عندي شبه يقين باننا لا نزال بعيدين من النهضة الأدبية بالمعنى الصحيح . واريد ان اذكر الى جانب هذا ، بل فوق هذا ، وقبل هذا ، أنَّ حالَة التجرُّد لا تزال تنقص اخواني الشبَّان في الجبل . فما علمت واحدًا منهم يستطيع ان يتغلَّب على عصبيَّته الأُسريَّة . فيخرج من نطاق الحياة العائليَّة الضيِّق الى نطاق شعبي فسيح يستمدُّ منه الوحي وموادَّ لأدبه ان كان عنده شيء من ذلك . فكيف تريد ان يكون لنا ادباء في شبيبة تعيش في مدارس بيروت ودمشق بجسمها وعقليَّتها الدرسيَّة فقط : فلا تتعلَّم فوق البرنامج الموصل الى الشهادة الملعونة شيئاً . وتبقى روحها غارقة في بحر العنصرات العائليَّة

والطائفية والحزبيّة القرويّة التي تقتل الأدب والرجولة والطموح في نفوس الناس اجمعين ؟

كيف تريد ان يكون لنا ادباء في شبيبة تتقاتل على الألقاب والمراتب ، وحق الدخول الى البيوت ، ووضع التوقيع في الأوراق بالدرجة المزدوجة ، وهي لا تزال على مقاعد الدرس تجمع المعلومات عن فولتر وروسو ومونتسكيو والمتنبي وابي فراس وشوقي وسواهم ؟ فاذا كانت هذه الشبيبة لم تفد من درسها ، وهي بعد في مواطن الدرس بعيدة بعض الشيء عن الحياة الحيّة الخاصّة ، فكيف بها بعد ان تعود لتنغمس في هذه الحياة حتى آذانها ؟

ولكني ما تعوّدت ان استسلم لليأس كل هذا الاستسلام. وما زال عندي موضع لأمل واحد بانقلاب اجتماعي قريب يبدّل ، بحياتنا الحاضرة القشوريّة ، حياةً جوهريّة جديدة يتفجّر الأدب من جوانبها تدفق البطولة والخصب والشباب والطموح من جوانب هذا الجبل الذي تكسو سواده خضرة الربيع الشاملة كل عام لتذكيرنا انه لا يزال ينبوعاً للقوّة والأمل والتجدّد .